بلاد ما وراء النهر

موقعها _ أقاليمها – نهرا سيحون وجيحون – لمحات من تاريخها القديم – فتحها واستعادة فتحها

تـأليف

اللواء الركن محمود شيت خطاب

جمع وترتيب : المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي – المجلد 33 – ج4– ص 91 – 168

1402هـ - 1982م

بلادُ ما وراءَ النَّهرِ

موقعها – أقاليمها – نهرا سَيْحون وجَيْحون – لمحات من تاريخها القديم – فتحها واستعادة فتحها

اللواء الركن محمود شيت خطّاب

عضو المجمع

الموقع :

كان نهر (جَيْحُون) القديم يُعدّ الحدّ الفاصل بين الأقوام النّاطقة بالفارسيّة والتركيّة ، أي إيران وتوران . فما كان في شماله ، أي وراءه ، من أقاليم سمّاها العرب : ما وراء النّهر (وهو نهر جيحون) وكذلك سمّوها : الهيطل . وقد كان الهياطلة في المئة الخامسة للميلاد ، أعدى أعداء الدولة السّاسانيّة ، وهم الأفثلاطيون (Ephthalites) لدى المؤلفين البيزنطيين ، ويعرفون بالهون البيض .

ويمكن تقسيم بلاد ما وراء النّهر إلى خمسة أقاليم :

١ – إقليم الصُّغْد ، وهو صُغْدِيانا (Sogdiana) القديمة مع قصبتيه : (بُخَارى) و(سَمَرْقَنْد) .

٢– إقليم خُوَارِزْم : في غرب الصُّغْد ، وهو الأقليم المعروف اليوم بـ (خِيْوَه) ، ويشمل على دلتا نهر جَيْحون .

٣– إقليم الصَّغَانِيَان : في الجنوب الشرقي ومعه (الخُتّل) وغيرهما

من الكور الكبيرة التي تقع في أعالي جيحون . وإليه أيضاً تعود (بَذَخْشَان) وإن وقعت في ضفته اليسرى ، أي الجنوبيّة ، فانّ المنعطف الكبيرللنهر فيما وراء طَخَارِسْتَان يكاد يطوّقها .

٤- إقليم فَرْغَانَة في أعلى نهر سَيْحُون .

٥- إقليم الشَّاس : وهو اليوم إقليم (طَشْقَنْد مع النواحي التي في الشمال الغربي الممتدة حتى مصب سيحون في مناقع بحر أُرال .

إقليم الصُّغْد

١- الصُّغْد :

يشمل الأرض الخصبة فيما بين نهري جيحون وسَيْحون ، تسقى بنهر الصغدُ وقد قيل : جنان الدنيا أربعة : غُوْطَة دِمَشْق ، وصُغْد سمرقند ، ونهر الأَبُلّة ، وشِعْب بَوّان . والصُّغْد عبارة عن قرى متّصلة خلال الأشجار والبساتين من سمرقند إلى قريب من بُخارى لاتَبين القرية حتى تأتيها ، لالتحاف الأشجار بها ، وهي من أطيب أرض الله ، كثيرة الأشجار غزيرة الأنهار ، متجاوبة الأطيار .

وأجلّ مدن الصُّغْد : سمرقند وبخارى ، ويمكن القول : إنّ الأولى كانت مركزه السياسيّ ، بينما كانت بخارى عاصمته الدينيّة ، ، إلاّ أنّ كلا المدينتين كانتا في مرتبة واحدة ، وتُعدّان قصبتي الصُّغد.

وقد تكتب الصُّغد بالسِّين مكان الصّاد ، أي السُّغد ، وكتابته بالصّاد أشهر وسكّان الصُّغد يدعون أيضاً : الصُّغد ، وهم في الأصل من الترك ، وكان لهم ذكر في فتح بلاد ما وراء النهر واستعادة فتحها ، وهم مقاتلون أشدّاء .

٢- بُخَارى :

من أعظم مدن ما وراء النّهر وأجلّها ، يُعْبَر إليها من (آمُل) الشط ، وبينها وبين جيحون يومان من هذا الوجه ، وكانت قاعدة ملك السّامانيّة .

وهي مدينة قديمة نزهة كثيرة البساتين والفواكه جيِّدتها ، تحمل فاكهتها إلى (مَرْو) وبينهما اثنتا عشرة مرحـــلة ، وإلى خُوارِزْم وبينهما أكثر من خمسة وبينها وبين سمرقند سبعة أيام أو سبعة وثلاثون فرسخاً .

وبخارى مدينة جميلة جداً ، وليس في بلاد الاســلام بلد أجمـــل منها فاذا علوت قلعتها يقع بصرك على خضرة متّصلة خضرتها بخضرة السماء فكأنّ السماء بها مكبّة خضراء مكبوبة على بساط أخضر . وأرض قُراها منعوتة بالاستواء كالمرآة ، وليس بما وراء النهر وخُراسان بلدة أهلهاأحسن قيامـــاً على قُراهم بالعمارة من أهل بخارى ولا أكثر عدداً على قدرها في المساحة .

واسم بخارى : (بُومِجْكَث) ، وهي مدينة على أرض مستوية ، وبناؤها خشب مُشبّك ، ويحيط بهذا البناء من القصور والبساتين والمحال والطرق المبلّطة والقرى المتّصلة سور يكون اثني عشر فرسخاً في مثلها ، يجمع هذه القصور والأبنية والقرى والقصبة ، فلا ترى في خِلال ذلك قفاراً ولا خراباً .

ومن دون هذا السّور على خاص القصبة وما يتّصل بها من القصور والمساكن والمحال والبساتين التي تعدّ من القصبة (المدينة الأصلية) ويسكنهاأهل القصبة شتاءً وصيفاً ، سور آخر نحو فرسخ في مثله ، ولها مدينة داخل هذا السور يحيط بها سور حصين ، ولها قلعة (قهندز) خارج المدينة متّصل بها ، ومقداره مدينة صغيرة ، وفيه قلعة بها مسكن ولاة المدينة ، ولها ربض ، ومسجد الجامع على باب القلعة .

وخرائب بخارى القديمة التي كانت قبل الاسلام ، تقع على بضعة أميال من شمال غربي المدينة الاسلاميّة قرب ضفة النهر .

وكان في داخل السّور الكبير حول بخارى الكبرى ، الذي يجمع المدينة الأصلية وضواحيها ، خمس مدن زاهرة منها : خُجَادَة ، وهي على فرسخ غرب الدّرب المنحدر من بخارى إلى (بِيكَنْد) على ثلاثة فراسخ من القصبة ، وكانت

مدينة كبيرة عليها حصن فيه الجامع ، حسنة ظريفة .

وتليها بلدة : (مَغْكَان) ، وكانت على خمسة فراسخ من بخارى وثلاثة من الدّرب ، لصق الجانب الغربي من السور الكبير ، وكان لمغكان حصن وربض حسن وجامع ظريف به ماء حار ، كثيرة القرى .

وكانت (بُومِجْكَث) مدينة صغيرة في شمال غربي بخارى على أربعة فراسخ منها ونصف فرسخ عن الدّرب الذي إلى يسار الطريق الذاهب إلى (طواويس) .

والطواويس (وتكتب معرّفةً في الغالب) أعظم المدن الخمس التي في داخل السور الكبير ، وكانت مدينة جليلة ، لها سوق ، ومجمع عظيم ينتابه الناس من أقطار أرض (خُراسان) في وقت معلوم من السنة . ويرتفع منها من ثياب القطن ما يحمل منه لكثرته إلى العراق . وفيها قلعة ، وحولها سور ، ومسجد جامعها في المدينة .

وآخر المدن الخمس الداخلة ، كانت (زَنْدَنَة) ، وما تزال قائمة حتى اليوم ، تبعد عن قصبة بخارى (المدينة الأصلية) أربعة فراسخ ، في شمال المدينة ، لها حصن به الجامع ، وربضها عامر ، وإلى هذه المدينة تنسب الثياب (الزندنجيّة) وهي ثياب مشهورة في الآفاق .

وعلى فرسخين من خارج السور الكبير وخمسة من بخارى ، في الطريق إلى جيحون عند (فِرَبْر) مدينة (بِيكَنْد) وما زالت قائمة ، فيها حصن بباب واحد ، ومحراب مزخرف فليس بما وراء نَهر محراب مثله ولا أحسن زخرفة منه ، ولها ربض فيه سوق،ولم يكن لها قرى ، وفيها نحو ألف رباط ، ولها سور حصين ومسجد جامع ، ويلي هذه المدينة مغارة رملية إلى حَدّ جيحون .

٣ـ أ . سَمَرْقَنْد :

تقع على نحو مئة وخمسين ميلاً من شرق بخارى ، وتقوم على مسافة

قصبيرة من ضفة نهر الصُّغد الجنوبيّة ، على نشز من الأرض .

وعلى المدينة سور حوله خندق عميق ، ولها قلعة مرتفعة عن الأرض ، وفي أسفلها قرب النهـــر أرباض كبيرة ، تحفّ بها البساتين والأشجار ، وقليل من دورها تخلو من بساتين ومن ماءٍ جارٍ ، وتكثر فيها أشجار السّرو . وفي القلعة دار الإمارة والحبس ، وكان عليها باب حديد من داخله باب حديد آخر .

أما المدينة نفسها ، فلها أربعة أبواب هي : باب الصِّين في جهة المشرق ينزل عنه بدرج كثيرة العدد مطلّ على نفس وادي الصُّغْد . وباب بخارى في جهة الشمال ، وباب النوبهار في جهة المغرب ، وهو على النّشز أيضاً ، والباب الكبير ويعرف بباب (كِش ّ) في جهة الجنوب .

ومساحة سمرقند ألفان وخمسمائة جريب (أي ٧٥٠ أكرا) ، فيها الأسواق والحمامات .

ولهذه المدينة مساكن كثيرة ، وماء جارٍ يدخل إليها في نهر من رصاص ، وهو نهر قد بنيت له مسنّاة عالية من حجارة يجري عليها الماء حتى يدخل باب كِش ، ووجه هذا النهر رصاص كلّه ، ودورها كلها قد بنيت بالخشب والطين والمدينة مكتَظّة بالسكّان .

وسوق سمرقند الكبير يعرف برأس الطاق ، وكان سوقاً رحباً ، وفي أسفل القلعة المسجد الجامع ودار الامارة .

وأرباض (ضواحي) سمرقند تمتدّ بامتداد ضفة النهر ، في بسيط من الأرض ، وعليها سور نصف دائري طوله فرسخان ، يحيطها من ناحية البر ، ويحيطها النهر من ناحية الشمال إحاطة القوس بالوتر ، فيتمّ بذلك خطّ دفاعها ، وللأرباض ثمانية أبواب ، ومجمع أسواقها رأس الطاق في المدينة .

والبلد كلّه : طرقه وسككه وأسواقه ، إلاّ القليل ، مفروش بالحجارة .

وكانت أسواقها زاخرة بالسِّلع الواردة إليها من جميع الأنحاء ، فقد كانت

سمرقند مركزاً تجاريّاً عظيماً لبلاد ما وراء النهر . ومن جملة ما اشتهرت بـه الورق السمرقندي ، فهو يحمل منها إلى سائر بلاد المشرق ، وكانت صناعته قد دخلت إليها من الصِّين .

وهواء سمرقند رطب، وفي جنوبها جبل صغير يدعى : (كُوْهَك) يمتد طرفه إلى مرحلةيوم عن المدينة ، وهو مقدار نصف ميل في الطول ، ومنه أحجار المدينة والطين المستعمل في الأواني والزجاج والنّورة وغير ذلك .

وليس في الأرض مدينة أنزه ولا أطيب ولا أحسن مستشرفاً من سمرقند ، كأنها السماء للخضرة ، وقصورها الكواكب للاشراف ، ونهرها المجرّةللاعتراض ، وسورها الشّمس للاطباق .

وقد قال أحمد بن واضع في صفة سمرقند :

علَتْ سمرقند أن يقال لها :	زين خُراسان جنّة الكُوَر
أليس أبراجـها معلّقة	بحيث لا تستبينُ للنّظـر
ودون أبراجها خنادقهـا	عميقـة ما ترام من ثغـر
كأنها وهي وسط حائطها	محفوفة بالظلال والشّـجر
بدرٌ وأنهارها المجرّة و	آطام مثـل الكواكب الزّهر

وقال البُستيّ :

للناس في أُخراهُمُ جنّة	وجنّة الدنيـا سـمرقنـدُ
يا مَن يُسوِّى أرضَ بَلْخ بها	هل يسـتوى الحنظل والقَنْدُ

ب : رساتيق سمرقند : في جنوب نهر الصُّغد .

أولاً : بَنَاكِتْ : على تسعة فراسخ من سمرقند ومثل ذلك من جنوب نهر الصّغد ، وما زالت قائمة حتى اليوم باسم : (بَنْجَكَنْد) ، حولها رستاق كثير الثمار خصب ، مشجّر باللّوز والجوز ، وتمتدّ حقول القمح على الأنهار ، وهي مدينة كبيرة .

ثانياً . وَرَغْسَر : قرية كبيرة من قرى سمرقند ، تقع بينها وبين مدينة بناكتْ ، ورستاقها خصب تسقيه أنهار مصدرها نهر الصُّغد ، وفيها كروم وضياع ، عندها مقاسيم نهر الصُّغد وغيره .

ثالثاً . ما يَمُرْغ : قرية من قرى سمرقند على فرسخ من جنوبها ، وليس في القرى أشدّ اشتباكاً في الشجر منها .

رابعاً . دَرْغَم : رستاق في جنوب سمرقند ، وهو أزكى الرساتيق وأكثرهنّ مراعي ومياهاً ، ويفيض من أعنابه ما يحمل إلى غيره من الرساتيق .

خامساً . أَبْغَر : جنوب سمرقند قريب من (دَرْغم) ،وهو رستاق كثير القرى ، أهله أصحاب مواشٍ ، قطره نحو من فرسخين .

ج : رساتيق سمرقند : في شمال نهر الصُّغد .

أولاً . يارْكَث : تقع في تخوم (أُشْرُوْسَنَة) ثم حوّلت إلى سمرقند، وهي على أربعة فراسخ أو مرحلة يوم من سمرقند إلى شمالها الشّرقي ، وهي قرية من رستاق (بُوْزْمَاجِن) أو (بُوزْمَاجِز) .

ثانياً . كُشْفَغَن :قرية ذات شأن عرفت في الأزمنة الأخيرة برأس القنطرة .

ثالثاً . بُرْنَمذ (أو فورنمذ) ق رستاق يتاخم أُشْرُوْسَنَة ، تكثر فيه المراعي والمواشي .

رابعاً . يَارْكَث : رستاق يتاخم أُشْرُوْسَنَة ، تكثر فيه المراعي والأغنام ، وهو أعلى الرساتيق الشمالية.

٤ ـ إشْتِيْخَن :

تقع على سبعة فراسخ من سمرقند ، ولها رساتيق وقرى ، وهي على غاية النزهة وكثرة البساتين والقرى والخصب والأشجار والثمار والزروع ، لها قلعة وأرباض وأنهار تأخذ من نهر الصُّغد ، وهي مشهورة بكثرة زروعها ، ويطلق عليها : قلب الصُّغد لخصبها .

٥- الكَشَانيّة :

بلدة بنواحي سمرقند شمالي وادي الصُّغد ، بينها وبين سمرقند اثنا عشر فرسخاً ، وهي قلب مدن الصُّغد ، وأهلها أيسر من جميع مدن الصُّغد .

٦- كَبُوذَ نجكَث :

بلد بينه وبين سمرقند فرسخان ، وهو رستاق ومدينة لنجوغكث .

٧- وَذَار :

عامة أرضها جبليّة ، تقع على أربع فراسخ من سمرقند ، فيها منارة وجامع وحصن حسن ، وهي كبيرة كثيرة البساتين والزروع ، في سهل وجبل ، وفيها تعمل الثياب الوذاريّة القطنيّة .

٨- المرزبان :

رستاق يتّصل برستاق وَذَار ، والمرزبان هو : المرزبان بن تركسفى ، من دهاقين الصُّغد ، كان يمتلك هذا الرستاق ، فسمّي باسمه .

٩- كَرْمِينِيَة :

مدينة تقع على مرحلة بريد شرق الطواويس في ظاهر السور الكبير ، وهي أكبر من الطواويس وأعمر وأكثر عدداً ، ولها قرى كثيرة ، وأرضها خصبة وأنهارها وافرة ، تأخذ ماءها من نهر الصُّغد . ومن قراها خُدِيمنكَن وتختص بأصحاب الحديث ، وبها جامع ومنبر وهي بلدة بين سمرقند وبخارى ، بينها وبين بخارى ثمانية عشر فرسخاً .

١٠- دَبُوسيّة :

تقع على مرحلة من شرقي كرمينيّة ، ولا قرى كبيرة فيها ولا أعمال لها ، وهي على نهر يأخذ من ضفة الصُّغد الجنوبيّة .

١١- كِش ّ :

مدينة لها قلعة وحصن وربض ، ومدينة أخرى متّصلة بالربض ، والمدينة الداخلة مع القلعة خراب ، والمدينة الخارجة عمار . وهي مدينة نحو ثلاثة فراسخ في مثلها ،حصينة ، تدرك فيها الفواكه أسرع مما تدرك بسائر بلاد ما وراء النهر ، غير أنها وبئة على ما يكون عليه بلاد الغور . وفي المدينة والربض في عامة دورها مياه جارية وبساتين ، وطول عمارتها مسيرة أربعة أيام في مثلها ، بناؤها من طين وخشب . وللمدينة الداخلة أربعة أبواب هي : باب الحديد ، وباب عبيدالله ، وباب القصّابين ، وباب المدينة الداخلة . وللمدينة الخارجة بابان ، أحدهما باب (بركنان) ، وبركنان قرية ينسب إليها الباب ، وباب المدينة الخارجة .

١٢- نَسَف نَخْشَب :

تقع على مئة ميل تقريباً في منحدر نهر (كُشْكَة = نهر القصّارين) أسفل (كِش ّ) من ناحيتها الغربية ، وتعرف هذه المدينة باسم : (فُرْشى) . لها قلعة وربض عامر في ظاهر المدينة ، له سور واربعة أبواب هي : باب النجاريّة ، وباب سمرقند ، وباب كِش ّ ، وباب غوبذين .

وتقوم (نَسَف) على النهر المؤلّف من مجتمع فضلات أنهار عديدة تأتي من رساتيق كِش ، وعلى ضفة دار الإمارة عند الموضع المعروف برأس القنطرة ، وحبسها عند دار الإمارة ، والمسجد الجامع قرب باب غوبذين . وأسواقها في الربض مجتمعة ما بين دار الإمارة ومسجد الجامع والمصلى بناحية باب البخارية داخل الباب ، وأسواقها حسنة ، ومزارعها خصبة وبساتينها كثيرة ، إلاّ أنها ليست لها قرى كثيرة ولا نواحٍ مثلما كان لكِش .

١٣- رَبَنْجَن : بليدة من صُغد سمرقند .

١٤- أ . أُشْرُوْسَنَة :

اعتبرها ياقوت في موضع من مدن سمرقند ومن اقاليم سمرقند [١] ، واعتبرها

(١) ياقوت (١٣٣/٥)

في موضع آخر اقليماً [٢] مستقلاً ، وقد أخذت برأيه الأول ، لأنها قريبة من سمرقند وفي منطقتها .

ومنطقة أشروسنة تقع في شرق سَمرقند ، بين الرساتيق الممتدة في محاذاة يمين نهر الصّغد والرساتيق التي في يسار نهر جيحون ، ولا يدخل هذان النهران ضمن منطقة أشروسنة .

وأرض المنطقة سهول وجبال ، ولا تتخلّلها أنهار كبيرة .

وأشروسنة مدينة بناؤها طين وخشب ، ولها مدينة داخلة ، عليها سور بذاتها ، وسور على ربضها ، ولها سور آخر من وراء ذلك . وللمدينة الداخلة بابان : أحدهما يدعى باب الأعلى ، والآخر باب المدينة . وداخل المدينة القلعة والمسجد الجامع والأسواق ، ويجري بالمدينة الداخلة نهر كبير عليه رحى، ويشتمل سورها المحيط بالربض ، أي المدينة الخارجة ، على الدور والبساتين، ويبلغ محيطه نحواً من ثلاثة فراسخ ، وكان لهذا السور أربعة أبواب .

وكان لهذه المدينة ستة أنهار صغيرة تسقي أرضها ، وجميع هذه الأنهار من منبع واحد وعَيْنٍ واحدة ، ويكون مقدار ما يدير عشرة أرحية ، ومن المدينة إلى منبع الماء اقل من نصف فرسخ ؛ وكانت المدينة مشهورة بكثرة النزه والبساتين .

ب : المدن التابعة لأشروسنة :

أولاً . زَامِيْن : بليدة من نواحي سمرقند ، وهي من اعمال أشروسنة ، وهي ثاني أكبر مدن أشروسنة بعد (بُنْجِيْكَتْ) ، تقع في طريق فَرْغَانَة إلى الصّغد ، ولها اسم آخر وهو سبذهُ ، ولها مياه جارية وبساتين وكروم ، بينها وبين ساباط فرسخان ، وبينها وبين أشروسنة سبعة فراسخ . ولها جامع وأسواق حسنة ، وليس عليها سور .

---

(٢) ياقوت (٢٥٧/١)

ثانياً . ساباط : مدينة لا تزال قائمة ، تقع قرب أشروسنة على عشرة فراسخ من خُجَنْد وعلى عشرين فرسخاً من سمرقند ، عامرة ، بها عين ماؤها جارٍ ، تحدق بها البساتين .

ثالثاً . دِيزَك : من مدن أشروسنة ، بها مرابط أهل سمرقند ودور ورباطات للسُّبُل ، ولها نهر جارٍ ، وتقع في شمال غرب زامين .

رابعاً . خَرَقانة : في جنوب ديزك ، في الطريق من سمرقند .

خامساً . خَاوِس : بليدة في منطقة أشروسنة ، وربما عوّض بدل السين صاد : خاوص ، تقع في الطريق الذاهب شمالاً من زامين إلى الشّاش .

سادساً . بُنْجِيكَت : اكبر مدينة بأشروسنة ، وهي التي يسكنها ولاة أشروسنة ، ولها خندق .

حاصلات اقليم الصُّغد

١- بخارى :

يصدر من بخارى بطيخ فائق يحمل إلى الآفاق ، وتصدر منها البُسط والمصايات والثياب الرخوة وثياب الفرش التي كانت تفرش في حجرات الضيوف . وكانت تنسج في محابِسها حُزُم الخيل ، وتدبغ فيها جلود الضأن ، ويصدر منها الشّحم ودهن الرأس إلى الآفاق .

٢- سمرقند :

أكثر ما اشتهرت به الكاغد ، ويعمل فيها ثياب حمر وديباج وقز . وكان الصفاوون يصنعون القدور العظيمة من النحاس ، وغيرهم يعملون الركب والسروج وأحزمة السروج والسيور ، وكذلك أصناف القماقم والقناني . ويحمل من رساتيقها البندق والجوز .

٣- كَرْمِينَيَة :

تصدِّر المناديل .

٤- الدبوسيّة :

تصدِّر الثياب والديباج .

٥- رَبَيْخَن :

تصدِّر اللّبود الحمر والمصليات والطاسات والحلبود وحبال القنّب والكبريت وأُزُر النِّساء .

٦- دِيِنْزَك :

تصدِّر اللبود والأقبية والجياد .

اقليم خوارزم

خُوارِزْم ، ليس اسماً لمدينة ، بل هو اسم للاقليم ، وهو إقليم منقطع عن (خُراسان) وعن ما وراء النهر ، ويحيط به المفاوز من كلٍّ جانب . يحدّه من الغرب بعض بلاد الترك ، ومن الجنوب خُراسان ، ومن الشرق بلاد ما وراء النهر ، ومن الشمال بلاد الترك أيضاً .

وإقليم خوارزم في آخر نهر جيحون ، وليس بعده على النّهر عمارة إلى أن يصب جيحون في بحيرة خوارزم .

ويقع إقليم خوارزم على جانبي نهر جيحون ، فهو أقرب اتصالاً ببلاد ما وراء النهر ، لذلك اعتبرناه هنا إقليماً من أقاليم بلاد ما وراء النهر .

كما أنّ عمليات الفتح الاسلامي في إقليم خوارزم كانت متّصلة اتصالاً وثيقاً بعمليات الفتح الاسلامي في بلاد ما وراء النهر ، فجعلنا فتح ما وراء النهر وخوارزم في دراسة متّصلة واحدة ، حرصاً على الوحدة الموضوعيّة في سير عمليات الفتح .

مدن خوارزم

١- كاث :

معنى كاث بلغة أهل خوارزم الحائط في الصحراء من غير أن يحيط به شيء ، وهي بلدة كبيرة في خوارزم ، تقع شرقيّ جيحون ، وجميع نواحي خوارزم تقع غربي جيحون بينها وبين (كُرْكابنْج) مدينة خوارزم عشرون فرسخاً .

ومدينة (كاث) لا تزال قائمة ، إلاّ أنّ كاث القديمة كانت تقوم على بضعة أميال من جنوب شرقي كاث الحديثة . وفي أوائل المئة الرابعة الهجريـة (العاشرة الميلادية) خرّب بعضها طغيان نهر جَيْحون ، فقد كان عرض هذا النهر عندها نحواً من فرسخين ، وكانت المدينة تبعد قليلاً عن يمين النهر ، تقوم على نهر يقال له (جردور) يشق البلد ، وكان السوق وطوله نحو ميل على جانبي هذا النهر . وكان لكاث في القديم قلعة فخرّ بها النهر وأتى عليها ، وكان الجامع والحبس على ظهر القلعة وكذلك قصر السلطان الملقب بخوارزم شاه ، وقد أتى فيضان النهر على هذه المعالم جميعها ، فلم يُبْقِ منها رسماً ولا طللا . .

وابتنى الناس (كاث) مدينة جديدة إلى الشرق من الأولى ، على مسافة من جيحون ، تقيها مخاطر طغيانه .

وكانت المدينة كاث القديمة واسعة كبيرة كنيسابور في خُراسان ، ولها أنهار كثيرة تشقّ البلد وشوارعها ، وكانت وسخة جداً ، وأهلها أغنياء وأسواقها عامرة بالخيرات ، وبنّاؤوها حذّاق مهرة ، فكانت (كاث) من أفخم المدن مظهراً .

ولكنها في ختام المئة الرابعة الهجرية (العاشرة الميلاديّة) بدأ نجمها بالأفول ومكانتها بالخفوت ، ففقدت مركزها كأهم قصبة في خوارزم ، وسرُّ أفولها ما كان ينتابها بين آن وآخر من طغيان جيحون عليها ، فكان يخرّب منها أحياء مختلفة في كلّ مرة ، حتى أصبحت بلدة ليس لها شأن كبير .

٢- كُرْكانْج :

قصبة خوارزم الثانية التي أصبحت بعد خراب (كاث) أولى مدن الاقليم ، فكانت (كركانج) التي سماها العرب : (الجرْجَانيّة) ، ثم عرفت بـ (أرْكنج) .

وفي أخبار الفتح الإسلاميّ ، أنّ العرب في سنة ثلاث وتسعين الهجريّة (٧١٢ م) لما غزوا خوارزم بقيادة قُتَيْبَة بن مُسْلم ، كان يقال لقصبة الإقليم التي فتحوها : (الفيل) ، ثم صار اسمها : (المنصورة) ، وكانت في شرقي جيحون، فغلب عليها جيحون وخرّبها . وكانت كركانج هذه مدينة صغيرة في مقابلة المنصورة من الجانب الغربي لجيحون ، فانتقل أهل المنصورة إليها وابتنوا بهـا المساكن ونزلوهـا ، فخربت المنصورة جملة حتى لم يبق لها أثر وعظمت كركانج .

وكركانج على غلوة من غرب نهر كبير تجري فيه السفن يأخذ من جيحون ويجري محاذياً له ، وقد احتالوا في ردّ خطر الفيضان باقامة السّدود من الخشب والحطب . وللبلد أربعة أبواب ، وهي كلّ يوم في زيادة .

وبانحطاط كاث أصبحت كركانج أولى مدن إقليم خوارزم ، ومن ثم قصبته الوحيدة .

وفي سنة ست عشرة وستمائة الهجريّة (١٢١٩) م ، زار ياقوت الحموي هذه المدينة فقال فيها : « لا أعلم أني رأيت أعظم منها مدينة ولا أكثر أموالاً وأحسن أحوالاً » ، فاستحال ذلك كلّه بتخريب التتر إياها سنة سبع عشرة وستمائة الهجرية (١٢٢٠ م) إلى خراب ودمار . ولما سارت عنها جحافل المغول قال ياقوت فيها : « لم يبق في ما بلغني إلاّ معالمها ، وقتلوا جميع مَن كان فيها » .

ولكن قصبة خوارزم نهضت من كبوتها بعد بضع سنين ، فابتنى الناس

بلداً قريباً منها ، وكان ذلك في سنة ثمانٍ وعشرين وستمائة الهجرية (١٢٣١م) على ما جاء في تاريخ ابن الأثير المعاصر لتلك الأحداث ، فقال : « وعمروا مدينة تقارب مدينة (خوارزم) ، عظيمة » .

وكان قبل الغزو المغولي لهذه الأرجاء مدينة تعرف بـ (كركانج الصغرى) على نحو ثلاثة فراسخ من القصبة (كركانج الكبرى) ، ويبدو أنّ كركانج الجديدة قد اختير لها موضع كركانج الصغيرة .

وذكر القزويني ، أنّ أهل كركانج الجديدة « أهل الصناعات الدقيقة كالحداد والنجار وغيرهما ، فانهم يبالغون في التدقيق في صناعاتهم ، والسكّاكون يعملون الآلات من العاج والأبنوس ، لا يعمل في غير خوارزم إلاّ بقرية يقال لها (طَرْق) من أعمال أصفهان ، ونساؤها يعملن بالإبرة صناعات مليحة كالخياطة والتطريز والأعمال الدقيقة » .

وما كادت المئة الثامنة الهجرية (الرابعة عشرة الميلادية) تأذن بالختام ، إلاّ واجتاح تيمور المدينة الجديدة وتركها قاعاً صفصفاً بعد حصار دام ثلاثة أشهر . إلاّ أن تيمورلنك أمر بتجديد بنائها ، فكمل البناء سنة تسعين وسبعمائة الهجرية (١٣٨٨ م) .

٣ـ خِيْوَه :

هي : (خَيْوَق) القديمة ، وأهل خوارزم يسمونها : (خِيْوَه) ، وهي التي أخذت في عهد الرؤساء الأزبك بعد زمن تيمورلنك تحجب بالتدريج مدينة (كركانج) وصارت قصبة خوارزم ، وشمل اسمها مع الأيام الإقليم كلّه .

وخيوه تقع على فم المفازة ، رحبة ، على شعبة من النهر (تأخذ من يسار جيحون) ، بها جامع عامر ، أهلها شافعيّة دون جميع بلاد خوارزم فانهم حنفيّة ، أمر تيمور بتجديد أسوارها . وهي اليوم أشهر مدن خوارزم .

٤– هَزَارأَسْب :

معناها بالفارسيّة : ألف فرس ، وهي في سمت (خِيْوَه) ، إلاّ أنها أقرب منها إلى ضفة جيحون اليسرى ، وهي قلعة حصينة ذات شأن ، حافظت على اسمها دون ما تغيير منذ الفتح الإسلامي حتى اليوم . وكانت في المئة الرابعة الهجريّة (العاشرة الميلاديّة) في نحو من (خِيْوَاه اتّساعاً ، لها أبواب خشب وخندق ، قلعتها حصينة ومدينتها جيدة ، فيها أسواق كثيرة وبزّازون وأهل ثروة ، وكان الماء محيطاً بها كالجزيرة ، وليس إليها إلاّ طريق واحد على ممر قد صنع ، يقبل إليها من نواحي كركانج قاطعاً السهلة الممتدة من ضفاف جيحون .

٥– جِكَرْبَنْد :

مدينة تحفّ بها الانهار والأشجار ، وفيها جامع حسن في وسط سوقها ، تقع في جنوبي (الطاهريّة) بمرحلة واحدة .

٦– الطّاهِريّة :

ناحية على جيحون في أعلاه بعد (آمُل) ، وهي أول عمل خوارزم .

٧– دَرْغان :

مدينة على شاطئ جيحون ، وهي أوّل حدود خوارزم من ناحية أعلى جيحون دون (آمُل) وعلى طريق (مرو) أيضاً ، وهي مدينة على جُرْف عالٍ ، وذلك على سنّ جبل بناحية البر ، وبينها وبين جيحون مزارع وبساتين لأهلها ، وبينها وبين نهر جيحون نحو ميلين ، تقارب (الجُرْجَانِيّة) كبراً ، لها جامع حسن ليس بالنّاحية مثله ، فيه جواهر رفيعة وتزاويق حسنة .

والمدينة تمتدّ فرسخين على الشط ، حولها الكروم ، وهي أول مدينة عظيمة في خوارزم تقوم على الطريق الآتي من (مرو) .

٨– أَرْتَخُشْمِيثَن :

تقع على مرحلة من (خيوه) ، وهي مدينة كبيرة ذات أسواق عامرة ونعمة

وافرة ، وهي في قدر (نصيبين) إلاّ أنّها أعمر وآهل منها ، بينها وبين الجرجانية ثلاثة أيام .

ولا أثر لها اليوم ، والظاهر أنّ المغول قد خرّبوها .

٩ــ زَمَخْشَر :

تقع بين (نُوزْكاث) وهي بليدة قرب الجرجانية وبين الجرجانية ، وكان في المدينة جسور عند أبوابها ترفع ، وعليها حصن وخندق ومحبس وأبواب محدودة ، والجامع ظريف ، وقد اشتهرت لأنّ الزمخشري صاحب التفسير المعروف قد ولد فيها سنة سبع وستين وأربعمائة الهجريّة (١٠٧٥ م) ، ومات سنة ثمانٍ وثلاثين وخمسمائة (١١٤٤م) ، وهي على أربعة أميال من (كَرْكانْج) .

حاصلات إقليم خوارزم

أهم تجارات خوارزم ، الطّعام والحبوب والفواكه ، وهي بلاد خصبة ، ويرتفع منها قطن كثير .

ويصدِّر الإقليم صوف الأغنام ، التي ترعى في مناقعه قرب أرال في قطعان كبيرة من الماشية .

وكان يحمل منها أصناف كثيرة من الجُبن واللّبَن .

وفي أسواق الجرجانيّة أشهر أنواع الفِراء وأغلاها التي تجلب إليها من بلاد البلغار على الفولجا .

ومما اشتملت عليه : فراء الدّلق والسمّور والثّعالب ونوعين من القندس ، وكذلك فراء السنجاب والفَنَك وابن عرس ، وتعمل منها الحلل الطويلة والقصيرة .

وتحمل من خوارزم جلود الأرانب والمعزى المدبوغة ، وكذلك جلود الحُمر الوحشيّة .

ومن غلاّت خوارزم وصناعاتها : الشّمع ، ولحاء الشّجر ، والحَوَر الأبيض

المسمى (التوز) ، وهو يتّخـذ غلافاً للدروع . وغراء السّمك ، وأسنان السمك والعَنْبَر ، والخلنج ، والعسل ، والبندق ، والسيوف ، والدّروع ، والقِسيِّ .

وعرفت خوارزم أيضاً بالبُزاة .

ويرتفع منها أيضاً ، العنب ، والعِنّاب ، والسمسم ، بكميات كثيرة .

ويُعمل فيها البسط وثياب اللُّحف والديباج المنسوج من القطن والحرير ، وتُحمل منها الأُزر والمقانع من القطـن والحرير وغيرها من الثيـاب الملوّنة . والحدادرون يعملون فيها الاقفال الجيدة . وتنحت فيها السُّفن من جـذوع الأشجار ، وتتّخذ للملاحة في الأنهار الصغيرة الكثيرة .

على أنّ أهمّ تجارات خوارزم في المئة الرابعة الهجرية (العاشرة الميلادية) كانت جلب الرّقيق ، فقد كانوا يشترون أولاد وبنات الأتراك من بدو تلك البراري ، وبعد أن يعلّموهم ويؤدبوهم ، يباعون في أسواق النخاسة .

وكان قسم من هؤلاء يعملون في الجيش ، وبالتدريج يتولّون أكبر مناصب الدولة القيادية والسياسية والإدارية .

اقليم الصغانيان وبذخشان والختل

نهرُ (بَذَخْشان) الذي يقال له نهر الضرعام ، يصب في جَيْحُون فوق معبر آرْهَن ، وتحت هذا المعبر يستقبل نهر جيحون رافده الأيمن الكبير (وَخْشاب) ، وهو نهر (الوَخْش) . ونهر الوخش يفصل بلاد (الخُتّل) وبلاد (الوَخْش) اللتين في شرقيه عن ناحيتي (القُبَاذْيَان) و (الصَغَانِيان) اللتين في غربيه .

ونهر وخشاب ، هو النهر المعروف اليوم بسَرْخاب ، أي النهر الأحمر .

وفي الموضع الذي يتّجه فيه نهر جيحون إلى الغرب ، بعد انعطافه حول (بَذَخْشَان) من ثلاثة جوانب ، يستقبل في يساره ، أي في ضفته الجنوبيّة ،

نهرى (الطايِقان) و (قندز) الآتيين من (طَخَارِسْتَان) ، وهذان النهران هما اللّذان سماهما ابن رسته بنهــر (ختــلاب) ونهر (وتراب) ، ويلتقي نهــرا القُبَاذْيَان والصغانيان الذي يمر بترمذ بجيحون في ضفته الشمالية أي اليمنى ، ومخرج هذين النهرين في جبال (البُتّم) ، وتفصل هذه الجبال في الشمال مياه جيحون عن مياه زرفشان التي في الصغد .

تلك هي الأنهار التي تروى مناطق الصغانيان وبذخشان والختّل ، وتحدّد حدودها بصورة عامة .

أما مواقع هذه المناطق ووصفها العام ، فيأتي وشيكاً .

المدن

١ـ بلاد بَذَخْشان :

تقع في شرقي طَخَارِسْتَان ، يحدق بها من ثلاثة جوانب المنعطف العظيم في نهر جيحون الأعلى ، وهي متاخمة لبلاد الترك ، بينها وبين (بَلْخ) ثلاث عشرة مرحلة ، ومثلها بينها وبين (تِرْمِذ) ، لها رستاق كبير عامر جداً ، وبها كروم وأنهار ، وقصبتها باسمها ، ومن المحتمل أن يكون موقعها في الموقع الذي تقوم به اليوم مدينة فيض آباد (فيز آباد) قصبة البلاد الحالية .

٢ـ الخُتّل :

كان هذا الاسم يطلق دون قيد على جميع بلاد الكفر مما يلي شرق خُراسان وشمالها ، وكانت الختّل تشتمل على بلاد (الوَخْش) في قسمها الشمالي ، حيث مخرج نهر (وَخْشَاب) .

والوخش كلمة عجميّة ومأخذها من العربيّة ، وهو أنّ الوخش رُذالة الشيْ ، لا يُثنّى ولا يُجمع ، يقال : امرأة وخشٌ ، ورجل وخْش ، وقوم وخش .

ووخش : بلدة من نواحي (بلْخ) من (ختّلان) ، وختلان : بلاد مجتمعة وراء النهر قرب سمرقند .

و (وَخْش) أيضاً : كورة متّصلة بخُتَّـل حتى تجعلا كورة واحدة ، وهي على نهر جيحون .

وكانت قصبة الختّل مدينة (هلبك) .

٣- الصَغَانِيان :

تقع غربي نهر الوَخْش ، يحدّها من جنوبها نهر جيحون ، وكان القسم الشرقي من هذه الناحية يعرف بـ (القُباذْيان) نسبة إلى مدينة بهذا الاسم .

وقُبَاذْيَان هي أصغر من (تِرمِذ) بكثير ، ونهر قُباذْيان الذي تقوم عليه المدينة في غاية الطول .

وفي أعالي نهر القباذيان وغرب قنطرة الحجارة تقع (واشَجِرْد) ، وهي نحو (ترمذ) في الكبر .

وعلى يسير من جنوبي (واشَجِرْد) تقع (شُوْمَان) ، وهي من أمهات المدن ، عامرة طيبة ، من الثغور الإسلامية ، وفي أهلها قوّة وامتناع عن السلطان وهي اصغر من (ترمذ) .

ومدينة الصغانيان هي مدينة (سر آسيا) الحديثة على ما يحتمل تقع فى أعالي نهر الصغانيان ، أكبر من (ترمذ) ، إلاّ أنّ (ترمذ) أكثر أهلاً ومالا ، لها قاعة كانت تقوم على جانبي النهر ، وجامعها وسط السوق ، وهي من معادن أجناس الطيور وموضع الصيد ، حولها عدد كبير جداً من القرى .

وكانت مدينة (باسَنْد) الصغيرة تبعد مرحلتين عن مدينة (الصغانيان) تقوم في الجبال المشرفة على النهر ، وهي رحبة كثيرة البساتين .

وعلى نهر الصغانيان أسفل من (باسَنْد) في نحو من نصف الطريق بين الصغانيان وترمذ ، كانت (دارزَنْج) : فيها رباط جليل ، وعامة أهلها صوّافون يعملون الأكسية ، والجامع وسط الأسواق .

وفي جنوب (دارزَنج) على نهر الصغانيان تقع مدينة (صَرْمِنْجان) ، فيها رباط جليل أيضاً .

على أنّ أجلّ مدن الصغانيان ، هي مدينة (تِرْمِذ) التي تقع في شمالي مضيق نهر جيحون وهو آتٍ من (بَلْخ) بالقرب من ملتقى نهر الصغانيان به ، وهي مدينة مشهورة من أمهات المدن ، تقع على نهر جَيحون من جانبه الشرقي ، لها قلعة فيها دار الامارة ، والربض حول المدينة التي كان عليها سور داخل وعلى الربض سور ثانٍ ، ومسجدها الجامع من اللبِن في أسواق المدينة . وكانت أسواقها بالآجر ، ومعظم سككها مفروشة بالآجر .

وكانت ترمذ فرضة التجارات المحمولة من الشمال إلى خراسان .

وللمدينة ثلاثة أبواب حصينة منيعة .

وفي يمين نهر جيحون ، على بعد يسير من أسفل (ترمذ) ، تقع مدينة (نَوِيْدَة) ، وفيها يعبر النهر مَن أراد (سمرقند) من (بلْخ) ، وفيها مسجد جامع في وسط البلد ، وهي آخر ما على نهر جيحون من مدن الصغانيان .

وعلى مرحلة من شمال غربي (ترمذ) في طريق (كِش ّ) و (نَخْشَب) في الصُّغد مدينة (هاشم جِرْد) التي كان لها شأن في المئة الرابعة الهجريّة (العاشرة الميلاديّة) .

وعلى مرحلتين من شمالها ، كان الطريق يجتاز (باب الحديد) المشهور ، وهو مضيق جبليّ فيه مدينة بهذا الاسم ، يقال لها بالفارسيّة (دراهنين) .

وهذا المضيق يبدو كأنه قدّته يد الانسان ، وتسمق الجبال على جانبيه إلى علوٍ شاهق ، والدّرب فيه ممهد عميق جداً .

وفي وسط الدّرب قرية يرتفع الجبل وراءها إلى علوّ عظيم ، ويقال لهذا الدرب : أبواب الحديد .

ولا ترى في كل هذه الجبال درباً آخر غيره ، فهو يحمي (سمرقند) من ناحية الهنـــد .

وتدرّ أبواب الحديد هذه دخلاً لمن يسيطر عليها ، لأن كلّ التجّار القادمين من الهند يمرون بهذا الدّرب ، ولمن يسيطر عليه أن يتقاضى أجراً من المارِّين .

حاصلات إقليم الصغانيان وبَذَخْشان والخُتّل

١ـ بَذَخْشَان :

كانت بذخشان تشتهر منذ القديم بأحجارها الكريمة ، لا سيما معدن البَاخش المقاوم للياقوت ، وبها معدن اللازورد ، والباور وحجر البازهر ، وحجر الفتيلة (الأسبست) وهو لا تحرقه النار ، وضرب من الحجر الفسفوري الذي يُجعل في البيت المظلم فيضيء .

٢ـ الخُتّل :

في غاية الخصب ، وفيها الخيول ودواب الحمل ، ويكثر فيها القمح والفواكه .

٣ـ الصغانيان :

أ . قباذيان : يرتفع منها الفوّة ، وهو عبارة عن جذور النبات المسمى : (فوّة) أو (روبيا) ، تستخرج منها مادة للصبغ بالأحمر ، إلى الهند تصدّر .

ب . واشَجِرْد : يرتفع منها الزعفران ويحمل إلى سائر الآفاق .

ج . شُوْمان : ينبُت في أراضيها الزعفران ، ويصدّر إلى الخارج .

إقليم فَرْغَانَة

الموقع :

هو إقليم من أقاليم نهر سَيْحون الذي يخرج من بلد الترك ، والذي يعظم من أنهار تجتمع إليه ، تأتي من الجبال ، ويدخل سيحون وادي فرغانة العظيم

من طرفه الشرقيّ في حدود (أُوزْكَنْد) . ويمتدّ إقليم فرغانة نحواً من مئتي ميل ونيف إلى شمال وجنوب مجراه الأعلى ، فإذا ما جرى نهر سيحون شرقاً استقبل روافد عديدة وهو يتخلّل فرغانة . فإذا جاوز (أَخْسِيكَث) القصبة وصل سيحون إلى (خُجَنْدَة) ، وعندها يبارح نهائياً إقليم فرغانة .

المدن

١ـ فَرْغَانة :

مدينة وكورة واسعة بما وراء النّهر متاخمة لبلاد تُرْكستان ، كثيرة الخير واسعة الرستاق ، بينها وبين سمرقند خمسون فرسخاً . وبفرغانة في الجبال الممتدة بين بلاد الترك ، وفيها من الأعناب والجوز والتفّاح وسائر الفواكه والورد والبنفسج وأنواع الرياحين مباح ذلك كلّه لا مالك له ولا مانع يمنع الآخذ منه ، وكذلك في جبالها وجبال كثيرة بما وراءَ النهر الفُسْتق المباح ما ليس ببلد غيره .

وقال الاصطخري : فرغانة اسم الإقليم ، وهو عريض موضوع على سعة مدنها وقراها ، وقصبتها (أَخْسِيكَث) ، وليس بما وراء النهر أكثر من قرى فرغانة ، وربما بلغ حدّ القرية مرحلةً لكثرة أهلها وانتشار مواشيهم وزروعهم .

٢ـ أَخْسِيكَث :

قصبة إقليم فرغانة ، تقوم على ضفة نهر سيحون الشمالية ، وهي مدينة واسعة ، لها قلعة ، وفيها الجامع ودار الإمارة والحبس ، وللمدينة ربض واسع .

والمدينة الداخلة ميل في مثله ، وفيها مياه جارية وحياض كثيرة . وفي المدينة وفي ربضها أسواق ، وعلى ربضها سور .

وللمدينة الداخلة خمسة أبواب ، وكانت البساتين تحفّ بالمدينة بمقدار فرسخين مما يلي أبواب ربضها .

وخرائب هذه المدينة شاخصة حتى اليوم .

٣ـ أنْدُكَان :

أصبحت هذه المدينة قصبة الإقليم بعد (أَخْسِيْكَث) ، ولا تفاصيل عنها

٤ـ قُباء :

مدينة كبيرة من إقليم فرغانة قرب الشّاش ، وينبغي أن تكون قريبة من (أنْدُكَان) ، تقارب (أخسيكث) في الكبر ، وهي من أنزه المدن ، ولها قلعة مكينة فيها الجامع في وسط ميدانها ، ولها ربض فيه دار الإمارة والحبس ، وكان على الربض سور محيط به ، وفيها أسواق كثيرة عامرة .

٥ـ أُوْش :

تقع شرقي قُباء ، وهي مدينة لها قلعة فيها دار الإمارة والحبس ، وحول المدينة ربض ، وعلى الربض سور ، وهي ملاصقة للجبل ، ولها ثلاثة أبواب ، وجامعها في رحبة واسعة وسط الأسواق .

والمدينة كثيرة الأنهار التي تسقى أراضيها ، وبالقرب منها جبل عليه مرصد لمراقبة تحركات الترك .

٦ـ أوزْكَنْد :

آخر مدن فرغانة شرقاً ، مساحتها نحو ثلثي (أُوْش) ، لها قلعة و بساتين ومياه جارية .

ولها ربض والأسواق فيه ، وهي متجر على باب الأتراك ، وعلى باب المدينة نهر ، يحيط بربضها حائط له أربعة أبواب ، وجامعها في الأسواق .

٧ـ مَرْغِيْنَان :

مدينة صغيرة في جنوب نهر سيحون ، وجامعها ناء عن السوق .

٨ـ رِشْتَان :

في غربي مرغينان ، كانت كبيرة ، ولها جامع حسن .

٩- خُوَاقند :

هي مدينة (خُوقند) التي صارت في الأزمنة الحديثة قصبة فرغانة ونسبت إليها خانيّتها : خانيّة خوقند . وكانت في القديم بلد من بلدان فرغانة ، لا أهمية تذكر لها .

١٠- خُجَنْدَة :

بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطئ سيحون ، بينها وبين سمرقند عشرة أيام مشرقا ، وهي مدينة نزهة ليس بذلك الصُّقْع أنزه منها ولا أحسن فواكه ، وفي وسطها نهر جارٍ ، والجبل متّصل بها .

وهي أول مدن فرغانة من الغرب إذا جئت من سمرقند ، تقوم على ضفة نهر سيحون اليسرى .

والمدينة طولها أكثر من عرضها ، ولها قلعة قويّة فيها السجن ، وجامعها داخل المدينة .

وعلى فرسخ من جنوبيها : (كَنْد) ، وهي ربض خجندة ، ودار الإمارة في الميدان بالربض وأهل خجندة لهم سفن يسافرون بها في سيحون ، وكان ربض (كَنْد) الخارج يقال له : (كَنْد با دَام) ، أي كند اللّوز ، لأنّ بها لوزاً كثيراً ، وهو لوز عجيب ينقشر إذا فرك باليد .

١١- وانْكَث :

مدينة تقع على سبعة فراسخ من غربي (أخسيكث) وعلى فرسخ من يمين سيحون في شمالي فرغانة ، لاتبعد كثيراً عن (إيلاق) ، وكان لها جامع وأسواق حسنة .

١٢- خَيْرلَم - خَيْلام :

تقع إلى شمالي (وانكث) في وسط الجبال ، وهي مدينة في رستاق (مَيَان

رُوذان) أي : ما بين الأنهار ، لها جامع حسن في وسط الأسواق .

وميان روذان هذه ناحية في أقصى ما وراء النهر قرب أُوزكَنْد .

١٣- شِكِيت :

تقع في شمالي (خير لَم) ، كثيرة الجوز ، ولكثرته يباع رخيصاً ، وجامعها في السوق ، وهي في أقصى إقليم فرغانة .

١٤- قَاسَان :

مدينة تقوم في ناحية مسمّاة باسمها ، تقع شمالي (شِكِيت) ، كانت عامرة آهلة كثيرة الخيرات ، واسعة الساحات ، متهدِّلة الأشجار ، حسنة النواحي والأقطار ، في حدود بلاد الترك ، خربت بغلبة الترك عليها كما يقول ياقوت .

ولكنها استعادت عمارتها ، ولا زالت نائمة .

حاصلات إقليم فرغانة

يرتفع من إقليم فرغانة الذّهب والفضّة والفيروزج والزئبق والحديد والنحاس والنوشادر والنّفط والقير (الزفت) .

واشتهرت فرغانة بحجر الأرحاء والفحم الحجري للوقود .

وكان يرتفع من بساتينها ويحمل إلى الآفاق : الأعناب ، والتفاح ، والجوز ؛

ومن الرياحين : الورد والبنفسج .

إقليم الشّاش

الموقع :

يقع إقليم الشّاش غربي إقليم فرغانة ، على ضفة نهر سيحون اليمنى ، أي الشمالية الشّرقيّة .

والخرائب المعروفة اليوم بـ (طشقند) القديمة هي موضع المدينة التي سمّاها العرب : الشّاش ، والفرس : (چاچ) ، وكان يقال لمدينة الشّاش (بِنْكَث) أو (بِيْكَث) ، وهي قصبة إقليم الشاش ، وقد كان لكثير من أسماء المدن

في بلاد ما وراء النهر تسميتان : إيرانيّة وتورانية .

ومقدار عرض إقليم الشّاش مسيرة يومين في ثلاثة أيام ، وليس بخُراسان وبلاد ما وراء النهر إقليم على مقدار إقليم الشّاش من المساحة ولا أكثر منابر منها ولا أوفر قرىً وعمارة .

وإقليم الشّاش عموماً في أرض سهلة ، ليس في هذه العمارة المتّصلة جبل ولا أرض مرتفعة ، وهي أكبر ثغر في وجه الترك ، وأبنيتهم واسعة من طين ، وعامة دورهم يجري فيها الماء ، وهي كلّها مستترة بالخضرة ، من أنزه بلاد ما وراء النهر وعلى ذلك فالشّاش إقليم يطلقه العرب على قصبتها : بِنْكَث .

المدن

١ـ الشّاش :

هي مدينة (بِنْكَث) ، وكان عايها أسوار كثيرة ، فقد كان لها مدينة داخلة ، لها قاعة تلاصقها ، عليهما سور .

وفي خارج المدينة الداخلة ، الرّبض الداخل ، وعلى هذا الربض سور . ويليه أيضاً الربض الخارج ، وفيه بساتين وحقول كثيرة ، وحوله سور ثالث .

وأخيراً السّور الكبير على غرار ما كان لبخاري ، يحمي الناحية كلّها ، فيكون حول الشّاش من ناحية الشمال بهيئة نصف دائرة ، يصل ما بين ضفة نهر الترك في الشّرق وسَيحون في الغرب .

فإذا عدنا إلى المدينة الداخلة والقلعة، وجدنا أن في القلعة دار الإمارة والحبس، وللقلعة بابان : أحدهما يفضي إلى المدينة الداخلة ، والآخر إلى الرَّبض .

وكان المسجد الجامع على سور القلعة .

والمدينة الداخلة فرسخ في مثله ، وفيها بعض الأسواق ، ولها ثلاثة أبواب : باب أبي العبّاس ، وباب (كِش) يُفضي إلى الجنوب ، حيث يصل الطريق القادم من سمرقند ، وأخيراً باب الجُنَيْد .

وكان لسور الرّبض الداخل عشرة أبواب ، وللربض الخارج سبعة أبواب ، وكان في الربض الداخل أسواق المدينة .

ويشقّ البلد أنهار وقنوات كثيرة ، تسقى البساتين والأشجار التي في داخل الأسوار .

أما السّور الكبير ، فإنه في أقرب نقطة منه إلى البلد ، كان يبعد فرسخاً واحداً عن باب الرّبض الخارج . وهذا السّور يبدأ في الشرق من جبل على نهر الترك يقال له جبل (سَابْلِـغ) ، وبُني هذا السّور لحماية المدينة من غارات الترك في الشمال . وكان هناك على بعد فرسخ مما يليه ، خندق عميق يمتدّ من الجبل على نهر الترك إلى حافة سيحون في الغرب ، وكان الطريق من شمال الشّاش إلى (اسبيجاب) يخترق هذا السور عند باب الحديد .

٢- بنَاكِت :

ثاني مدن إقليم الشّاش ، تقوم على ضفة سيحون اليمنى ، حيث كان طريق خُراسان القادم من سمرقند يعبر النهر إلى الشّاش ، والجامع في سوقها .

٣- جيِنْانْجَكْث :

كان الطريق من (بناكت) إلى الشّاش ، يخترق مدينة (جيِنْانْجَكْث) وهي على ضفة نهر الترك الجنوبية أي اليسرى ، على فرسخين فوق ملتقاه هو وسيحون وكانت هذه المدينة كبيرة ليس عليها حصن ، بنيانها خشب ولبن .

٤- إيلاَق :

مدينة من إقليم الشّاش المتّصلة ببلاد الترك على عشرة فراسخ من مدينة الشاش ، أنزه بلاد الله وأحسنها .

وإيلاق ناحية أيضاً مختلطة بأقليم الشاش لا فرق بينهما ، وقصبتها (تُونْكَث) ،

وبإيلاق معدن الذّهب والفضة في جبالها ، ويتّصل ظهر هذا الجبل بحدود فرغانة .

وناحية إيلاق تقع في جنوبي نهر إيلاق وشمالي المنعطف الكبير لنهر سيحون أسفل خُجَنْدَة ، وتشمل على ما يقرب من عشرين مدينة ، وكانت البلاد من الشّاش إلى إيلاق متّصلة العمارة مختلطة العمل .

٥- تُونْكَث :

قصبة ناحية إيلاق ، تقع على نهر إيلاق على نحو من ثمانية فراسخ من الشّاش ، وهي نحو نصف بِنْكَث قصبة الشّاش ، وكان لها قلعة ومدينة داخلة حولها ربض يحيط به سور ، وفي القلعة دار الإمارة والحبس والمسجد الجامع ، والأخيران عند باب القلعة ، وأسواقها داخل المدينة وفي الربض ، وفيهما ماء جارٍ .

٦- خاشت :

مدينة آهلة ، تقع قرب معادن الفضة في جبال إيلاق على حد فرغانة ، وتحف بالمدينة قرى عديدة .

٧- أسبيجاب :

ناحية تقع في شمالي الشّاش من يمين سيحون فشرقاً ، وقصبته باسمه ، والمدينة تقع على نهر (أريس) ، وهو رافد من روافد سيحون اليمنى ، وكانت نحو الثلث من بِنْكَث ، وتشتمل على مدينة وقلعة وربض ، وعلى المدينة الداخلة سور ، وعلى الربض سور أيضاً يحيط به مقداره فرسخ ، وهي في أرض سهلة ، بينها وبين أقرب الجبال إليها نحو ثلاثة فراسخ ، وفي خارجها مياه وبساتين . وكان للمدينة أربعة أبواب ، على كل باب رباط ، وفي المدينة وربضها أسواق ، وفي المدينة الداخلة دار الإمارة والحبس والجامع .

٨- أسْبَانيكث :

من مدن ناحية أسبيجاب ، بينهما مرحلة كبيرة .

٩- جَمْكِنْت :

من مدن ناحية أسبيجاب ، كبيرة عليها حصن ، والجامع في الحصن ، والأسواق بالربض .

١٠- بارَاب = فاراب :

تقع على ضفة سيحون الشرقيّة ، أسفل انصباب نهر جمكنت فيه مباشرة ، عند معبر سيحون . والاسم يطلق على الناحية والمدينة ، وهي مدينة كبيرة عليها حصن فيه الجامع ، ولها أسواق وأرباض ، وأرضها سبخة ذات غياض .

١١- وَسِيْج :

بلدة صغيرة محصّنة على فرسَخين من باراب = فاراب ، وفي سوقها المسجد الجامع .

وينسب إلى فاراب أبو نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩ هـ (٩٥٠ م) ، وهو أشهر فلاسفة المسلمين قبل ابن سينا ، على أنّ ابن حوقل قد نسَب مولد الفارابي إلى (وسيج) لا إلى (فاراب) .

١٢- شَاوَغَر :

مدينة تقع على مرحلة من شمال (باراب) على ضفة سيحون اليمنى ، وهي كبيرة واسعة الرستاق ، عليها حصن ، والجامع على طرف السوق ، وهي من الجادة بمعزل .

١٣- صَبْرَان :

مدينة تقع على مرحلة يوم من شمال شَاوَغر ، وهي ما زالت قائمة حتى اليوم، وكانت ثغراً أمام الغز ، ويجتمع بها الغزيّة للصلح والهدنة والتجارات .

١٤- جَنْدُ :

اسم مدينة عظيمة في بلاد تركستان ، بينها وبين خُوارزم عشرة أيام تلقاء بلاد الترك مما وراء النهر ، قريب من نهر سيحون .

١٥- طُرَارَ بَنْد :

مدينة من وراء سيحون من أقصى بلاد الشّاش مما يلي تركستان ، وهي آخر بلاد الإسلام مما يلي ما وراء النهر . وأهـــل تلك البـــلاد يسقطون شطر الاســـم فيقولون : طُرار وأطْرار .

١٦- طِرّاز :

بلد قريب من اسبيجاب من ثغور الترك وقريب من (طُرَارَبَنْد) ؛ وهي مدينة جليلة ، حصينة ، كثيرة البساتين ، مشتبكة العمارة ، لها خندق وأربعة أبواب ، ولها ربض عامر ، على باب المدينة نهر كبير ، والجامع في الأسواق ، وهي متجر للمسلمين من الأتراك ، وهي مدينة طيبة التربة لطيفة الهواء ، وأهلها مشهورون بالجمال .

١٧- كُولان :

تقع بالقرب من (طِراز) ، وكانت قرية كبيرة محصّنة ، ولها جامع ، وتعدّ موضعاً ذا شأن كبير ، على حدود بلاد الترك .

حاصلات إقليم الشّاش

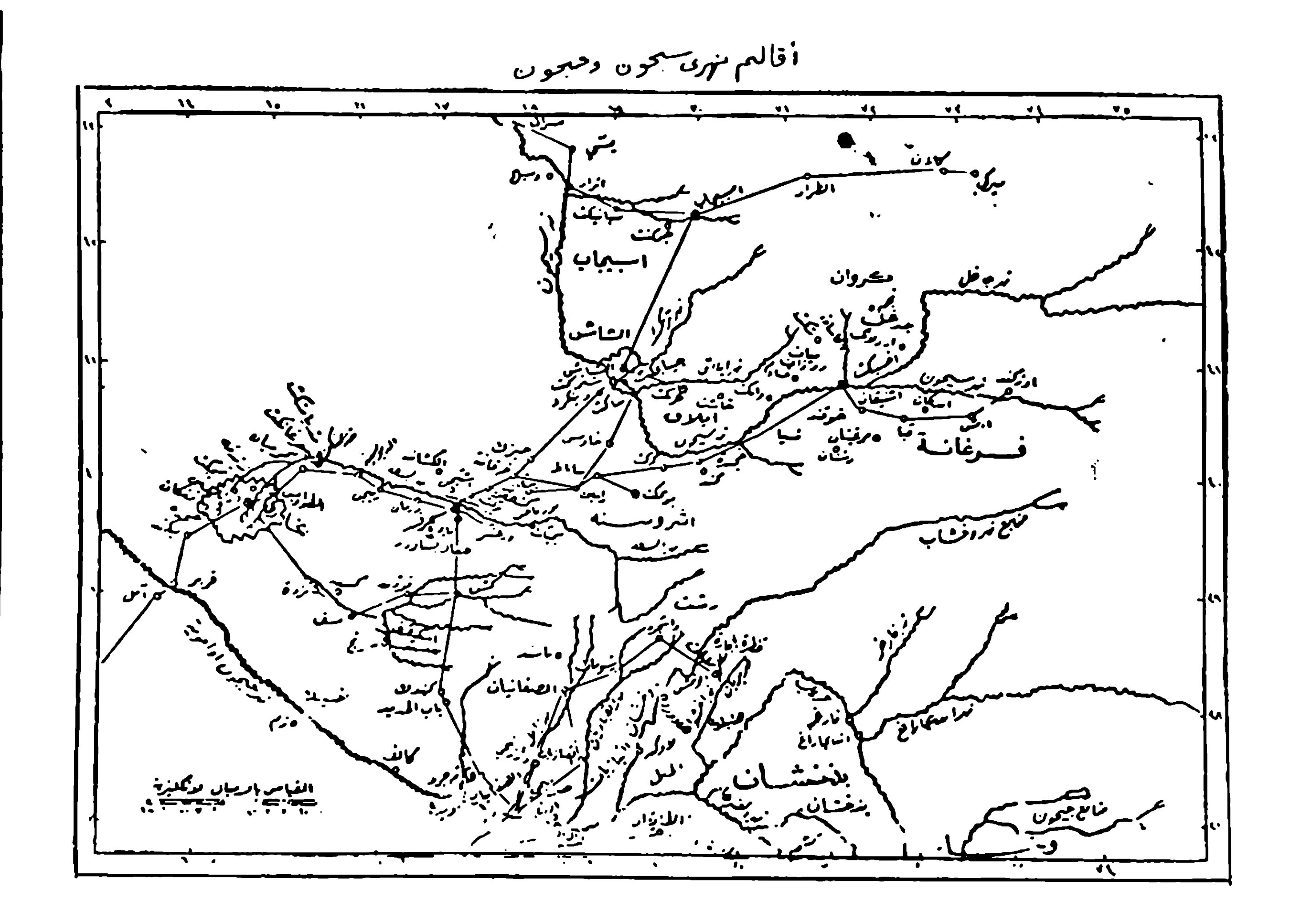
يرتفع من الشّاش ثياب بيض رقيقة ، وسيوف وغيرها من السِّلاح ، وآلات النُّحاس والحديد كالإبر والمقاريض والقدور .

ويرتفع منها أيضاً جلود الحُمُر الوحشيّة الرقيعة والجعاب والقسيّ الجيدة ، والجلود التي تجلب من الترك وتدبغ محلياً والمصليات والأخبية .

ويرتفع منها الرز والكتّان والقطن .

ويرتفع من (طراز) في بلاد الترك جلود المعز ، واشتهرت في كلّ وقت بالخيل والبغال التركستانية .

ويرتفع منها الذهب والفضة وبخاصة من إيْلاَق .


أقاليم نهري سيحون وجيحون
اسبيجاب
الشاش
الطراز
فرغانة
اشروسنة
الصغانيان
بذخشان

أنهار بلاد ما وراء النّهر

نهر جيحون :

كان نهر جيحون القديم ، يُعدّ الحدّ الفاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية والاقوام الناطقة بالتركية ، أي إيران وتوران ، فما كان في شماله من أقاليم سمّاها العرب : ما وراء النهر – وهو نهر جيحون – وكذلك سمّوها : الهيطل ، وهم الذين يعرفون بالهون البيض .

وأطلق العرب في القرون الوسطى على نهر (أُوكسس Oxus) اسم جيحون ، وفي أواخر القرون الوسطى في نحو من زمن الغارة المغوليّة، كاد يبطل استعمال اسم : جيحون ، فعرف : أَمُّويَة أو أمتوْدِرْيَا .

ومن الملاحظ أنّ العرب قد سمّوا الأنهار بأسماء المدن الكبيرة التي تقع عليها ، فكان جيحون يعرف في الغالب بنهر بلخ وإن قامت هذه المدينة على بضعة أميال من ضفته الجنوبيّة .

ومنابع نهر جيحون من بحيرة في التُبّت الصغرى وفي الفامر (پامر Pamir) ولجيحون أربعة روافد ذكرها الاصطخري ، فعَمود نهر جيحون الأعلى كان بنهر (جرياب) وهو اليوم نهر (بِنْج) ، وكان يصل إلى بَذَخْشان من الشرق ، ويخرج من بلاد وخّان ، وكان يقال لنهر جرياب أيضاً نهر وخّان . وكان عمود جيحون هذا ينحدر من الهضاب الشرقيّة ويدور دورة كبيرة حول (بَذَخْشَان ويضرب نحو الشمال ، ثم يتّجه غرباً فجنوباً قبل أن يبلغ أطراف (خُلْم) .

وينصب في يمين مجراه الذي يؤلّف ثلاثة أرباع الدائرة ، كثيرٌ من الروافد الكبيرة ، أولها نهر (أنديجاراغ) ، وقرب ملتقاه بجيحون مدينة باسمه ، والظاهر أنه هو نفسه نهر (برتناك) اليوم .

ثم يلتقي معه نهر (فارغر) ، وهو ينحدر من بلاد الخُتّل ، ويطابق نهر (ونج) اليوم .

وفي أسفله يستقبل نهر أخشوا (أخْشن) ، وهو يقابل عمود نهر جيحون ، وعليه مدينة (هُلْبُك) قصبة بلاد الخُتّل .

ومن منابعه : نهر (بلبان) أو (بربان) .

وهذه الأنهار المتحدة تعرف اليوم باسمها التركي : آق صو ، أي النهر الأبيض.

هذه هي روافد نهر جيحون العليا الأربعة ، على ما جاءت في الاصطخري ، وقد قال : إنّ هذه المياه تجتمع كلها فيه فوق معبر النهر في (آرهن) .

وفوق هذا المعبر أيضاً ، ولكن في يسار النهر ، يصبّ في جيحون نهر بذخشان ، ويقال له نهر الضرغام .

وتحت معبر آرهن يستقبل نهر جيحون رافده الأيمن الكبير (وخشاب) ، وهو نهر الوخش ، وهذا النهر يفصل بلاد الخُتّل وبلاد الوخش اللتين في شرقه عن ناحيتي القباذيان والصغانيان اللتين في غربه .

ونهر وخشاب ، هو النهر المعروف اليوم بسرخاب ، أي النهر الأحمر .

وفي الموضع الذي يتّجه فيه نهر جيحون إلى الغرب ، بعد انعطافه حول بدخشان من ثلاثة جوانب ، يستقبل في يساره ، أي في ضفته الجنوبية نهري الطايقان وقندز الآتيتين من طخارستان ، وهذان النهران هما اللذان سماهما ابن رسته بنهر ختلاب ونهر وتراب ، ويلتقي نهرا القباذيان والصغانيان والأخير ، وهو يمر بترمذ ، قد سماه ابن رسته بنهر زامل ــ بجيحون في ضفته الشمالية ، أي اليمنى .

وتفصل جبال (البُتّم) في الشمال مياه جيحون عن مياه زرفشان التي في الصُّغْد .

وهذه هي آخر روافد النهر العظيم ، لأنّ نهر جيحون لا يستقبل غيرها من الأنهار إذا ما جاوز غرب (بَلْخ) ، فيجري في المفازة باتجاه غربي وشمالي غربي حتى دلتاه في جنوب بحر آرال .

ويجمد نهر جيحون في الشتاء . وكانت القوافل الموقرة تعبره ماشيةً فوق السّطح المنجمد ، وقد يبلغ ثخن الجليد خمسة أشبار أو أكثر . ولقد ذكر القزويني أنّ أهل خُوارزم كانوا يحفرون آباراً بالمعاول حتى يخرقوه إلى الماء ، ثم يسقون منها كما يسقون من البئر لشربهم ويحملونه في الجرار .

نهر سَيْحون :

أطلق العرب على نهر (جَكزَرْتِس Jaxartes) اسم نهر سيحون في القرون الوسطى .

وفي أواخر العصور الوسطى ، في نحوٍ من زمن الغارة المغولية ، كاد يبطل استعمال اسم سيحون ، فعرف بنهر سيردريا .

على أنّ اسم النهر الأكثر شيوعاً عند العرب كان نهر الشّاش ، والشاش القديمة هي مدينة (طَشْقَنْد) وإنما سمي بهذا الاسم لوقوع المدينة المهمة الشّاش بالقرب من ضفافه .[1]

وذكر ابن حوقل ، أنّ نهر سيحون ، يخرج من بلد الترك ، وهو يعظم من أنهار تجتمع إليه ، تأتي من الجبال ، ولا يدخل وادي فرغانة العظيم من طرفه الشرقيّ في حدود (أُوزْكَنْد). ويمتدّ إقليم فرغانة نحواً من مائتي ميل ونيِّف إلى شمال وجنوب مجراه الأعلى ، فإذا ما جرى نهر سيحون شرقاً استقبل روافد عديدة وهو يتخلّل فرغانة وهي نهر خرشان ونهر أورَسْت وقُبا وكذلك نهر جِدْغِل ولعله هو نهر (نرين) الحالي ، وأنهاراً أخرى غيرها . فإذا جاوز أسوار (أَخْسِيْكَث) القصبة وصل سيحون إلى (خُجَنْدَة) ، وعندها يغادر نهائياً إقليم فرغانة .

ثمّ ينعطف شمالاً ، فيستقبل في يمينه نهرين يقال لهما نهر (إيْلاَق) ونهر (تُرْك) ، ويمرّ بغرب رستاق إيلاق والشّاش . وفي ما يلي ذلك ، ينتهي سيحون إلى رساتيق اسبيجاب ، ثمّ إذا اجتاز مفاوز الغز والترك ، توزّعت مياهه على أنهار عديدة حتى يقع في بحر آرال في القسم الشمالي الشرقي منه .

وقد ذكر البلدانيون العرب ، أنّ نهر سيحون صالح لسير السفن كنهر جيحون ، وأنّ سيحون يجمد شتاءً مدة أطول من جيحون ، فكانت القوافل تعبره على مائه المنجمد ، وكان بـعْـدُ نحو ثلثي جيحون .

ويعتبر إقليم فرغانة من أقاليم نهر سيحون .

كما يعتبر إقليم الشّاش من أقاليم هذا النهر العظيم أيضاً .

أما إقليم أُشروسنة ، فيمكن اعتباره من أقاليم نهر سيحون ، كما يمكن اعتباره من إقليم الصّغد ، لأنه يقع شرقي سمرقند بين الرساتيق الممتدة في محاذاة يمين نهر الصُّغد والرساتيق التي في يسار نهر سيحون ، دون أن يدخل هذان النهران ضمن إقليم أُشروسنة .

التّاريخ القديم لبلاد ما وراء النّهر قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه الأولى

١ـ بلاد ما وراء النهر جزء من تركستان الغربية التي تضمّ في الوقت الحاضر جمهورية أوزبيكستان وجمهورية تاجيكستان الحالية .

وهناك اصطلاح : آسيا الوسطى ، وهو عبارة عن تركستان الغربيّة والشرقيّة معاً ، وهما الوطن الأصلي للأتراك كلّهم ، وهذه حقيقة تذكرها كلّ المصادر التاريخيّة والأبحاث الأثرية التي أُجريت في بعض مناطق آسيا الصغرى ، فأرجعت تاريخ آسيا الوسطى إلى ما قبل تسعة آلاف سنة خلت ، وأثبتت نتائج الأبحاث الأثرية وجود حضارة عظيمة في آسيا الصغرى قبل تسعة آلاف سنة ، وأنّ هذه المنطقة من العالم كان يسكنها أُناس بلغوا من المدينة شأواً عظيما .

وأغلب الحفريات أُجريت في تركستان الغربيّة ، ولكنّ تركستان الغربية والشرقية سواء من ناحية الظروف الطبيعية والتاريخيةوالسياسيةوالاقتصادية والبشرية ، وتخضع لنفس العوامل وتضمّ بقايا نفس المدنية والحضارة ، فما ينطبق على الغربية ينطبق على الشرقيّة أيضاً .

وأوّل مَن سكن هذه المنطقة هم : التُّرك ، والآثار القديمة المكتشفة تثبت قيام دولة تركية عريقة من سنة (٥٠٠٠ ق.م. إلى سنة ٢٠٠٠ ق . م .) .

والتُّرك الأول الذين أقاموا هذه الدولة ، ورد ذكرهم عند (هيردوت) باسم : (اسكيت) ، وباسم (توران) في المصادر الفارسيّة ، وباسم : (ساكا) في المصادر الهنديّة .

و (توران) صيغة جمع لكلمة (تركيّ) ، والصيغة الاملائية في اللّغة السنسكريتية لمعنى : (تركي) هي : (تورشكا) .

والمصادر الصينية تطلق على الترك اسم : (هسيونغ – نو) ، أي : الهون الشرقيون ، وتاريخ الترك الموثق يبدأ بالهون الشرقيين .

وكانت هناك امبراطورية للهون في تركستان (٢٢٠ ق.م. – ٢١٦ م) اصطدمت بالصينيين مرات وبغيرهم ، وكانت تدعى : خاقانية الهون ، وكانت الحرب بينها وبين الصين سجالا .

وتسجِّل المصادر التاريخية لأول مـــرة استعمال كلمة : (ترك) التي نتلفظها اليوم في عهد دولة (كول تورك) التي استمرت من (٥٥٢ م – ٧٤٥م) ، وكانت الحروب بينها وبين الصينيين سجالاً أيضاً .

وتسجِّل تلك المصادر أنّ هذه الدولة التركية استعانت بالمسلمين في حرب الصينيين ، فأحرزت نصراً بمعاونتهم على حكّام الصين .

٢– وقد سكن بلاد ما وراء النهر الإيرانيون أيضاً ، ويبدو أنهم اغتصبوا تلك

الأصقاع من الترك ، لأن الترك سبقوهم في سكناها .

وأقدم المستعمرات التي سكنها الإيرانيون هناك ، كانت تلك المنطقة من الأرض التي تمتد من (أخسيكث) القديمة عند حدود (فرغانة) الشرقيّة حتى بُخارى . وهذه المنطقة التي تضمّ أغلب بلاد ما وراء النهر الخصبة تتخلّلها أنهار وقنوات طبيعية واصطناعيّة عديدة وقد عدّد البلخيّ أسماء جبالها وغدرانها وأنهارها ومدنها ونواحيها وقراها ، وجميع تلك الأسماء فارسيّة قديمة في أصلها . وحال دون انتشار الحضارة الفارسية من هذه المنطقة إلى ما بعد بخارى غرباً تلك الكثبان الرملية التي تعد امتدادا لصحراء (خلطه) ، فظهرت(قراقول = البحيرة السوداء) وكذلك (بيكَنْد) = (مدينة الأمير) من بَعْدُ كما ينبئ بذلك اسماهما التركيان .

وكان الإيرانيون يستقرّون ما وسعهم الاستقرار وبعد عنهم خطر غارات التورانيين ، ويؤدي استقرارهم إلى نشاطهم الحضاري . وأيّاً ما كان من ميل القوم الغريزي إلى ممارسةالحرف والفنون الجميلة أو من تأثرهم بجيرانهم الصينيين أصحاب الإبداع ، فالثابت المعروف أنّ تجارة الحرير وجدت بين أبناء آسيا الوسطى مَن يُقبل على العمل بها في غيرة وجد ، ولم يكن هؤلاء من التورانيين على وجه اليقين . ويروي النرشخي في كتابه : تاريخ بخاري ، أنّ تجار بيكَنْد كانوا هم الوسطاء بين الصين والبحر الغربي (قزوين) ، وتقول المصادر البيزنطيّة انّ أهل بخارى والصّغد كانوا في القرنين الخامس والسادس الميلاديين يسيرون بقوافل الحرير العظيمة عبر الامبراطورية السّاسانيّة إلى شرق بلاد الامبراطورية الرومانيّة . وحين شقّ المسلمون من بعد ذلك طريقهم عبر جيحون وجدوا هناك نشاطاً صناعياً وزراعياً مهماً .

وليس لنا أن ننسى أنّ المدنية الإيرانية قد تعرّضت منذ العصور الأولى لغارات التورانيين فيما وراء جيحون ، ففي الوقت الذي أقام فيه الإيرانيون مدنهم على

ضفاف سيحون وجيحون واستقروا فيها ، كان بدو التورانيين في ذيّاك الوقت البعيد يتجوّلون على وجه اليقين ، في مناطق السّهوب المجاورة لها .

وليس ثمة دليل نستدلّ به على الوقت الذي بدأت فيه غارات التورانيين الأولى على المناطق الزراعيّة ببلاد ما وراء النهر ، بعد أن استقرّ فيها الإيرانيون وعمروها ، ولكن هناك مَن يذكر أنّ الترك كانوا قد انطلقوا سنة (٧٠٠ ق.م.) عبر جيحون ، وهو الحد القديم الذي كان يفصل بين إيران وتوران ، فباغوا حُدود الهند .

وقد تدفّق الترك عبرجيحون في القرن الثاني قبل الميلاد ، ومما يؤيد ذلك وجود كلمة (بَلْخ) ، وهي كلمة (بالق) أو (بالخ) التركيّة القديمة ، ومعناها المدينة أو العاصمة ، وهو الاسم الذي كان يطلقه الترك على مقر أميرهم . وفعل المغول مثل ذلك بعد عدّة قرون ، فكانوا يعرفون مقرّ خانهم الأعظم باسم : خان بالق ، ويقصدون : مدينة الخان .

وكذلك نجد على الشاطىء الآخر لسيحون دليلاً آخر على وجود العناصر التركية في زمن مبكّر هناك ، وذلك في تسمية العاصمة : بُخارى ، وهذا اللّفظ تركيّ في أصله ، ونظيره أيضاً كلمة (بيكند) وهي تركية أيضاً ، وكلمة (آمو) اسم نهر (جيحون) وهي تركية أيضاً ومعناها : النهر .

والذي يبدو أنّ السيطرة على بلاد ما وراء النهر كانت سجالاً بين الترك والفرس وقد حُكمت هذه البلاد من الجانبين قبل الفتح الإسلامي العظيم .

٣ــ أما عن أحوال سكّان بلاد ما وراء النهر الدينيّة ، فانّ عقائد زرادشت هي ديانة السكّان الإيرانيين ، واعتنق هذه العقيدة قسم من الأتراك أيضاً ، فقد انتشرت تعاليم زرادشت من بيوت النار في بلاد ما وراء النهر صوب الشرق فبلغت منازل بدو الترك عند (تيان شان) ، كما انتشرت كذلك صوب الشمال حتى شواطىء بحر آرال .

وقد تعرّضت الزرادشتية قبل فجر التاريخ إلى ضربة شديدة في بلاد ما وراء

النهر بفعل البوذيّة القادمة من الشّرق ، فأصبح غالبية التورانيين يعبدون الأوثان .

ويحتمل كلّ الاحتمال ، أنّ النضال بين البوذيّة والزرادشتية في بلاد ما وراء النهر ، اتّخذ صورته بين عرقين لا بين عقيدتين حسب ، وكان أولياء العقيدة الأولى التورانيون الذين تلقّوها في (التُبّت) ، وبإزائهم طفق الإيرانيون يدافعون في حميّة طبيعيّة عن ديانتهم القوميّة .

ولا نعلم التاريخ الذي أطلق فيه الاسم التوراني : (بخارى) على المدينة الإيرانية القديمة : (جموكت) ، ذلك لأنّ (بُخار) لا يزال حتى اليوم علماً مغولياً على المعبد أو الدير البوذي . وعلى ضوء ما كان من انتشار نفوذ الصين بين أتراك الشمال ، فيما بين صحراء (جوبي) حتى بحر (قزوين) ، ذلك النفوذ الذي كان يقوم قبل المسيح عليه السّلام وإبان حكم أسرة (هان) في الصين (١٦٣ ق.م – ١٩٦ م) ، فإن لنا أن نستنتج أنّ العقائد البوذية قد وجدت لها أتباعاً على ضفاف زَرَفْشان) أي نهر (الصُغْد) في القرون المسيحيّة الأولى .

وقد ذكر الرحّالة البوذيون عن ازدهار البوذية في تركستان الشرقية في القرن الخامس الميلادي ، ذلك الازدهار الذي لا يُستبعد امتداده حتى مناطق سيحون وجيحون . وقد وجد الفاتحون المسلمون الأولون آثار البوذيّة آخر الأمر ببلاد ما وراء النهر عند الفتح الإسلاميّ ، وحين فتحوا (بيكند) ، كان من بين ما غنمه المسلمون من الأوثان صنم عظيم الحجم من الذّهب الخالص استرعى انتباههم ، إذ كان له عينان من الجوهر الثمين .

وكان في بلاد ما وراء النهر أقليّة من النساطرة المسيحيين ، نزحوا إليها هرباً من بلاد الروم نتيجة لمطاردة الامبراطورية البيزنطيّة للنساطرة المنشقين على الكنيسة ، تلك المطاردة التي قادت بسبب الخلافات المذهبية المريرة ، فانطلق أولئك المضطَهدون يلتمسون مجالاً لنشاطهم في الشرق الأقصى ، فمهّدت كراهيتهم للبيزنطيين لكسب عطف السّاسانيين عليهم ، وقد اتّخذت المسيحية مركزاً في

سمرقند حيث أنشأت لها اسقفية بابويّة فيما بين سنتي (٤١١ م و ٤١٥ م)

٤- ولعلّ من المفيد أن نذكر شيئاً عن حكام قسم من بلاد ما وراء النهر الذين التقوا المسلمين الفاتحين في أيام الفتح ، فتردّدت أسماؤهم كثيراً في المصادر التاريخيّة العربية المعتمدة بخاصة والمصادر التي نقلت عنها بعامة .

عندما توفي (بندون) أو (بيدون) : بخار خداة ،وهو لقب ملوك بخارى ، ترك طفلاً رضيعاً اسمه (طغشاد) أو (طغشادة) ، فانفردت بشؤون الملك زوجة (بندون) التي يدعونها السيِّدة المصون (خاتون) التي كانت أم الطفل (طغشاد) ، ويقال : إنّ حكمها استمرّ خمسين سنة ظهر المسلمون خلالها في بلاد ما وراء النهر .

ويقال : إنه لم يكن في عصر من العصور مَن هو أصوب رأياً منها ، فكانت تحكم بصائب الرأي ويَنقاد لها الناس ، وقد ذاع صيت هذه السيدة لحِكْمتها وإجلال الناس لها .

وكان من عادة (خاتون) أن تخرج كلّ يوم من حصن بخارى على ظهر جوادها وتقف على (باب السّهل = ريكستان) ، وقد سمى هذا الباب بباب العلاّفين فيما بَعْد ، حيث كانت تجلس على تختٍ وأمامها الغلمان والخصيان والاشراف والحشم .

وكانت قد فرضت على أهل الرستاق أن يجيء لخدمتها مائتا شاب من الدهاقين والأمراء ، متمنطقين بمناطق ذهبيّة ويحملون السيوف ، ويقفون من بعيد. وعند خروج (الخاتون) من الحصن كانوا يحيّونها ويقفون في صفين وهي تنظر في أمور المملكة وتأمر وتنهى وتخلع على مَن تريد وتعاقب مَن تريد ، وتظلّ هكذا من الصباح إلى الضحى ، ثمّ تعود إلى الحصن ، وترسل المواد وتطعم جميع الخدم والحشم .

وعندما يأتي المساء ، كانت تخرج على هذه الصورة ، وتجلس على التخت

وقد اصطفّ أمامها الدهاقين والأمراء في صفّين للتحيّة ، وتبقى تقيم العدل بين الناس إلى موعد غروب الشمس ، وحينئذ تنهض وتمتطي جوادها وتعود أدراجها إلى قصرها في الحصن ، ويذهب حرّاسها إلى مواطنهم في الرستاق .

وفي اليوم التالي ، يأتي قوم آخرون للخدمة بنفس الطريقة ، وهكذا دواليك حتى تأتي النوبة على أولئك القوم ثانية ، وكان يتحتم على كل منهم أن يجيء في السنة أربعة أيام على هذا المنوال .

ويبدو أنه كان في بخاري تسعون أسرة من الأسر المرموقة ، لكي تأتي النوبة أربع مرات على كلٍّ شاب من حرس (خاتون) في السنة الواحدة .

ولما توفيت هذه الخاتون ، كان ابنها طغشاد قد كبر وأستأهل الملك ، بينما كان كثيرون يطمعون في هذا الملك .

وقد كان ثمة وزير أصله من التركستان ، يسمى : (وَرْدَان خُداة) ، وكانت له إمرة (وَرْدانَة) وهي قرية من قرى بُخارى ، وقد خاض ضده قُتَيْبَة بن مُسْلِم الباهِلي حروباً كثيرة إلى أن مات (وردان خداة) هذا وفتح قتيبة بخارى بعد أن أخرج وردان خداة مراراً من هذه الولاية حتى هرب إلى التركستان ومات هناك ، فأعطى قتيبة بخارى لطغشاد ثانية وأجلسه على العرش ، وصفا له الملك وكفّ عنه أيدى جميع أعدائه .

وكان طغشاد قد أسلم على يدي قتيبة ، فظلّ يحكم بخاري طياة حياة قتيبة ،ثم بقي ملكُ بخارى في يديه بعد عهد قتيبة إلى أن توفاه الله ، وملك بخارى اثنتين وثلاثين سنة .

وأنجب طغشاد وهو في الإسلام ولداً أسماه : قتيبة ، محبّةً في قتيبة بن مسلم وتقديراً لمزاياه وأفضاله ، فخلف قتيبة أباه طغشاد على عرش بخاري ، وبقى على الإسلام مدّة ، ثم ارتدّ عن الإسلام في أيام الفتن التي شملت خُراسان وبلاد ما وراء النهر ، وكان ذلك في أيام سيطرة أبي مُسْلم الخُراساني على تلك

الأرجاء في أواخر عهد بني أُميّة ، فعلم أبو مسلم بالأمر فقتل قتيبة وأهلكَ أخاه وأهلـــه .

وتولى عرش بخارى (بنيات بن طغشاد) ، وكان قد ولد في الإسلام وظلّ عليه مدّة من الزّمن ، فلما ظهر (المُقَنّع) في رستاق بخارى ، انجرف بنيات بتيار الفتنة ، فمال إلى المقنّع ، وأعان أصحابه ، حتى طالت أيديهم وتغلّبوا .

وأخبر صاحبُ البريد الخليفةَ ، وكان الخليفة إذ ذاك (المهدي) العباسي ، فلما فرغ المهدي من القضاء على فتنة المقنّع ، أرسل الفرسان إلى بنيات ، فقتلوه في قصره سنة مئة وست وستين الهجرية (٧٨٢ م) على الردّة .

وظلّت أملاك وضياع تلك العائلة بأيدي أبنائها أولاد (بخار خداة) ، وكان آخر مَن خرجت من يديه تلك الأملاك والضياع هو أبو اسحق ابراهيم بن خالد ابن بنيات ، وكان إبراهيم يقيم ببخارى والأملاك والضياع بحوزته ، يرسل بخراجها إلى أمير المؤمنين المقتدر بالله جعفر بن المعتضد بن الموفّق بن المتوكّل بن المعتصم بن هرون الرشيد (٢٨٢ هـ – ٣٢٠ هـ) ، (٨٩٥ م – ٩٣٢ م) ، وقد توفي إبراهيم سنة إحدى وثلاثمائة الهجرية (٩٢٣ م) وبقى أولاده في بخارى وقراها .

تلك هي لمحة عن أسرة من الأسر الحاكمة التي صادفها المسلمون في أيام الفتح ، قد تعطي صورة للأسر الحاكمة حينذاك ، وللمعاملة التي عوملت بها من الفاتحين .

وهذه اللّمحة ، هي المعلومات المتيسرة في المصادر التاريخية ، تكررت أسماء بعض منتسبيها كالخاتون كثيراً في المصادر التاريخية العربية ، دون أن تعطي تلك المصادر تفاصيل حياتها .

وقد ظلّت (خاتون) في الحكم خمسين سنة قضت شطراً منها في ظلّ الحكم الإسلامي دون أن تعتنق الإسلام ، فلم يحملها أحد من الفاتحين على الإسلام ، ما دامت تفي بشروط الصلح وتلتزم بها ، وهذا دليل واقعي على كذب ادعاء الذين يدّعون أنّ الإسلام انتشر بحدّ السّيف .

والذين قتلوا من أحفادها قتلوا على الردّة لا على عدم الإسلام .

وكثيراً ما يرد في الفتح هذان المصطلحان : خاقان وطرخان ، فمن المفيد أن نعرف معاني هذين المصطلحين ، فقد يفيدنا ذلك في تفهم سير حوادث الفتح .

وخاقان : لقب من ألقاب السيادة التي تطلق على أباطرة المغول والترك العظام ، ومعناه : ملك الملوك ، تمييزاً له عن : الخان ، وهو الحاكم الإقليمي لبعض الولايات التي كانت تتكوّن منها الإمبراطورية المغولية في آسيا الوسطى (تركستان) في أيام الفتح الإسلامي ، وقد استخدم هذا اللّقب السّلاطين المسلمون من المغول والترك ، كما استخدمه السّلاطين العثمانيون .

أما طَرْخَان ، فكان يطلق في الدولة المغولية اصطلاحاً على الأشراف من الرجال الذين يمنحهم الخاقان امتيازات خاصة تشمل الاعفاء من الضرائب مع الحق في أخذ نصيب من غنائم المعركة ، ومنها كذلك الدخول إلى بلاط الخاقان بدون استئذان .

وقد شاع في الدول التركيّة .

وطَرْخون ، صيغة أخرى من طرخان ، وله امتيازات الاعفاء من الضرائب والامتيازات الأخرى ، فهما لفظان لمعنى واحد .

ومعناه كما جاء في المصادر التاريخية العربية القديمة كالطبري : ملك من ملوك ما وراء النهر ، يتبع خاقان الترك ، وعلى الخصوص هو ملك الصُّغْد ، فيقال : طرخون الصُّغد ، والطرخون نيزك ، أي طرخون الصّغد المسمى نيزك .

وعندما قدم العرب المسلمون فاتحين في بلاد ما وراء النهر ، كان عدد من الطراخين يحكمون في (بِيكَنْد) وسمرقند وغيرهما . ولا تفصح المصادر عما إذا كان هؤلاء الأمراء والرؤساء مستقلين في بلادهم أو كانوا تابعين للخاقان ، ولكنها تنصّ بصراحة على استنجاد طرخون بخاقان وبالآخرين من بني جلدته في تركستان

وفرغانة ، كما فعلت خاتون وطرخون سمرقند حين أطبق على بخارى وسمرقند المسلمون الفاتحون ، وكان الخاقان والملوك الآخرون يسارعون إلى النجدة خفافا ، فاشتبكوا بالمسلمين عدّة مرّات ، وتكبد الطرفان خسائر فادحة بالأرواح والأموال ، وكانت النتيجة انتصار الفاتحين .

ويبدو أنّ ملوك بلاد ما وراء النهر كانوا مستقلين استقلالاً ذاتياً ، ولكنهم كانوا جميعاً يدينون بالولاء للخاقان ، لأنه ملك الملوك (عملياً) إذا كان قوياً ، و (نظرياً) إذا كان ضعيفاً .

وملوك بلاد ما وراء النهر ، كانوا كملوك الطوائف ، لهم استقلالهم الذاتي في أوقات السّلام ، ولكن الحرب تجمعهم ليصبحوا صفاً واحداً على عدوّهم المشترك في الدفاع عن مصالحهم المشتركة .

فتح بلاد ما وراء النهر واستعادة فتحها

القاعدة المتقدمة :

١ـ استطاع الأحنف بن قيس التميمي فتح (خُراسان) سنة ثماني عشرة الهجرية (٦٣٩ م) ، وفي قول آخر سنة اثنتين وعشرين الهجرية (٦٤٢ م) على عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه .

ولكن (خاقان) ملك الترك ، ومعه (يزدجرد) آخر ملوك السّاسانيين ، عبر نهر جَيْحون إلى مدينة (بَلْخ) التي كان المسلمون قد فتحوها قريباً ، وأعاد هذه المدينة إلى سيطرة يزدجرد .

وقد استنجد يزدجرد بخاقان بعد اكتساح المسلمين بلاده وتقدّمهم من نصر الى نصر فاتحين ، فسار معه خاقان على رأس جيشه ، واستعاد مدينة (بَلْخ) من المسلمين ، لأنه قاتل حاميتها المحليّة ولم يقاتل جيش المسلمين الأصلي ، فانتصر خاقان على الحامية المحلية .

ولا يمكن أن نعزو انتصار خاقان ليزدجرد ، لأنه حليفه أو لأسباب عاطفية في دعم ملك الترك لملك الفرس ، بل كان لخاقان مصلحة في إبعاد المسلمين الفاتحين عن مدينة (بَلْخ) ، لأنّ هذه المدينة هي مفتاح السيطرة على بلاد ما وراء النهر بخاصة ومنها بلاد خاقان ، فليس من مصلحة خاقان أن يفتح المسلمون مدينة بَلْخ ، لأنّ الخطوة التالية لفتحها هو عبور المسلمين نهر جيحون وفتح بلاد ما وراء النهر وتهديد بلاد خاقان تهديداً مباشراً بعد ذلك .

ولم يسكت المسلمون على اندحار حامية بَلْخ المحليّة أمام جيش خاقان ، فبادروا فوراً بالزحف على بَلْخ بقيادة الأحنف بن قيس التميمي على رأس قواته الضاربة الأصلية ، فقاتل المسلمون جيش خاقان وانتصروا عليه بسهولة ويسر ، وأجبروه على الانسحاب عن (بَلْخ) ، فعاد خاقان إلى بلاده فيما وراء النهر ومعه يزدجرد .

واستعاد الأحنف بن قيس فتح مدينة بَلْخ وسائر خراسان ، فكتب إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بالفتح .

وجمع عمر بن الخطّاب الناس حين تسلّم كتاب الأحنف بالفتح ، فبشّرهم بهذا الفتح وخطبهم ، وأمر بكتاب الفتح فقرئ على الناس ، وقال في خطبته : « ألا إنّ الله قد أهلك ملكَ المجوسيّة وفرّق شملهم ، فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يضرّ بمسلم . ألا وإنّ الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون ، والله بالغ أمره ومنجز وعده ومتبع آخر ذلك أوّله ، فقوموا في أمره على رجلٍ يعرف لكم بعهده ويؤتكم وعده ، ولا تتبدّلوا ولا تتغيّروا فيستبدل الله بكم غيركم ، فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تُؤتى إلاّ من قِبَلِكُم » .

٢ــ ولما قُتل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، نقض أهل خراسان وغدروا ، فاستعاد عبدالله بن عامِر بن كُرَيْز القُرَشِيّ العَبْشَمِيّ فتح خراسان ثانية

بمعاونة الأحنف بن قيس التميميّ سنة إحدى وثلاثين الهجرية (٦٥١ م) على عهد عثمان بن عفّان رضي الله عنه .

وانتقضت بعض مناطق خراسان حين نشب الاقتتال الداخلي بين المسلمين أيام الفتنة الكبرى بعد استشهاد عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، وكانت مدينة بلْخ من المدن الخرسانية التي انتقضت حينذاك .

وفي سنة إحدى وخمسين الهجريّة (٦٧١ م) ، أصبح الربيع بن زياد الحارثي على خراسان لزياد بن أبي سفيان الذي كان على العراقَين لمعاوية بن أبي سفيان ، فغزا الربيع مدينة بلْخ وفتحها صلحاً من جديد .

ومدينة بلْخ على الدّوام باب بلاد ما وراء النهر الجنوبي ، وكانت باستمرار عرضة لهجمات الترك القادمين من بلاد ما وراء النهر ، يعبرون إليها نهر جيحون الذي كان يسمى : نهر بلْخ أيضاً فيغزونها ، فلا عجب أن يقرِّر المسلمون فتح بلاد ما وراء النهر للدفاع عن بلخ بخاصة وخراسان بعامة ، لأنّ الهجوم أنجع وسائل الدفاع .

وكانت بلخ هي القاعدة المتقدّمة للمسلمين في فتح بلاد ما وراء النهر .

فتح الحَكَم بن عمرو الغِفاريّ

١- في سنة خمس وأربعين الهجرية (٦٦٥ م) ولّى زياد بن أبي سفيان خراسان الحكم بن عمرو الغِفاري على عهد معاوية بن أبي سفيان .

وفي سنة ثمان وأربعين الهجرية (٦٦٨ م) أو سنة تسع وأربعين الهجرية فتح الحكم (الصَغَانِيان) ، وهو إقليم من أقاليم ما وراء النهر .

قال عبدالله بن المبارك لرجل من الصَغَانِيان : « مَنْ فتح بلادك ؟ » ، فقال الرجل : « لا أدري ! ! » ، فقال ابن المبارك : « فتحها الحكم بن عمرو الغِفَارِيّ » .

فتح عُبَيْدالله بن زياد

في سنة ثلاث وخمسين الهجرية (٦٧٣ م) ، ولّى معاوية بن أبي سفيان خُراسان عبيدالله بن زياد .

وفي سنة أربع وخمسين الهجرية (٦٧٣ م) ، قطع عبيدالله النهر (جيحون) إلى جبال (بُخارى) على الإبل في أربعة وعشرين ألفاً ، فكان عبيدالله أول مَن قطع إليهم جبال بخارى في جند ، ففتح (راميْثَن) و (نَسَف) و (بِيْكَنْد)

وأرسلت (خاتون) ملكة بخارى إلى الترك تستمدّهم ، فجاءها منهم عدد كبير ، حيث التقى بهم المسلمون وهزموهم بعد قتال شديد ، وانتصروا عليهم .

وبعثت خاتون تطلب الصلح والأمان من المسلمين على أن يعودوا عن بخارى ، فصالحها عبيدالله على ألف ألف درهم .

وعاد المسلمون إلى خُراسان دون أن يفتحوا بخارى .

٢ـ وخاتون ملكة بخارى ، هي زوجة الملك (بندون) ملك بخارى الذي توفي عنها وخلّف من خاتون ولداً حدثاً يدعى (طغشاد) ، فانفردت خاتون بشؤون الملك وصيّة على ابنها الحدث .

وقد دام حكمها خمسين سنة ، ظهر المسلمون في اثنائها في ديارها .

وخاتون ليس اسمها ، بل صيغة من صيغ التوقير للسيدات من ذوات المقام الرفيع ، أصل الكلمة فارسي أو تركي ، ولا يزال هذا اللقب يستعمل حتى اليوم بين الأتراك .

ومعنى كلمة خاتون : السيدة الوجيهة ، أو ما يقارب هذا المعنى .

وقد ذاع صيت هذه السيدة وإجلال الناس لها ، وكانت تغادر مقرّها كلّ يوم بعد شروق الشمس مباشرة ، فتقصد باب السّهل (الريكَستان) ، فتجاس

فوق عرش ومن حولها رجال البلاد والأعيان ، وتقيم العدل بين الناس .

وكان يقوم على حراستها في الحضرة كلّ يوم مئتا شاب يتمنطقون بالذهب ، ومعهم سيوفهم الذهبيّة كذلك ، وكانوا يستبدلون بغيرهم كلّ يوم ، وعلى هذا الوضع كانت تتيح لكلٍّ قبيلة تحكمها أن تشارك في أداء واجب حراستها أربع مرات كلّ سنة .

وبهذه السيدة انتهى الحكم الفعلي لأوّل أسرة حاكمة في بخارى ، وقد احتفظ ابنها طغشاد باستقلاله لمدة اثنتين وثلاثين سنة لاعتناقه الإسلام .

واشتبك طغشاد في حروب ضد الترك إلى جانب المسلمين الذين ثبّتوا ابنه من بعده على العرش تكريماً له ، وكان قد سمّى ابنه : قُتَيْبَة ، تيمناً باسم قتيبة بن مُسْلِم . ولكن قتيبة هذا لم يخاص للاسلام والمسلمين إخلاص أبيه طغشاد ، إذ كان يتظاهر بالإسلام ويخفى ممارسة طقوس المجوس ، فقتل متّهماً بالزندقة .

تلك هي مجمل سيرة خاتون وذويها ، وقد نجحت خاتون في صرف عبيد الله بن زياد عن بخارى بالصلح إلى حين ، فمهّد عبيدالله للمسامين الفاتحين فتحها في الوقت المناسب .

فتح سعيد بن عثمان بن عفّان

١ـ ولىّ معاوية بن أبي سفيان سنة ست وخمسين الهجرية (٦٧٥ م) خراسان سعيد بن عثمان بن عفّان وعزل عبيدالله بن زياد .

وقدم سعيد خراسان ، فقطع النهر إلى (سَمَرقَنْد) ، فكان أول مَن قطع نهر (بَلْخ) من العرب .

وبلغ خاتون ملكة بخارى عبوره النهر ، فحملت إليه الصلح الذي صالحت عليه عبيدالله بن زياد .

وأقبل أهل (الصُّغْد) و (كِش) و (نَسَف) إلى سعيد في مئة ألف وعشرين ألفاً ، فالتقوا ببخارى ، وقد ندمت خاتون على أدائها الجزية ، فنكثت العهد . ولكن قسماً من الحشود المجتمعة لقتال سعيد انصرفوا قبل مباشرة القتال ، فأثّر انصرافهم في معنويات الآخرين واهتزّت معنوياتهم ، فلما رأت خاتون ذلك ، أعادت الصلح ، فدخل سعيد مدينة بخارى فاتحاً .

وطلب سعيد من خاتون أن تبعث إليه برهائن ضماناً لتنفيذ ما تصالحا عليه ، فبعث إليه بثمانين من أعيان بلادها ممن كانوا على رأس الخارجين عليها ، وممن تخشى غدرهم بها وتهديدهم لعرشها ، فتخلّصت بذلك من أشدّ أعدائها خطراً على عرشها وحاضرها ومستقبلها .

وحين تمّ الصلح بين خاتون وسعيد ، زارت خاتون سعيداً في مقرّه ، فطلعت عليه في زينتها الملكية ، وكانت نادرة الجمال على ما يقال ، فادّعى أهل بخاري أن القائد العربيّ أعجب بجمالها أيّما إعجاب ، وجرى ذكر إعجاب سعيد بها في الأغاني الشعبية التي لا يزال أهل بخارى يردّدونها ويتغنّون بها حتى اليوم .

ولكن هذا الإعجاب لا ذكر له في المصادر العربية والإسلامية المعتمدة ، ومن الواضح أنه أقرب إلى خيال الأدباء والفنانين منه إلى حقائق المؤرخين .

٢ـ وغزا سعيد سمرقند ، فأعانته خاتون بأهل بخارى ، فنزل على باب سمرقند وحلف ألاّ يبرح أو يفتحها .

وقاتل المسلمون أهل سمرقند ثلاثة أيام ، وكان أشدّ قتالهم في اليوم الثالث حيث فُقئت عين سعيد .

ولزم أهل سمرقند مدينتهم وقد فشت فيهم الجراح ، فأتاه رجل دلّه على قصر فيه أبناء ملوكهم وعظمائهم ، فسار إليهم وحصرهم .

وخاف أهل سمرقند أن يفتح سعيد ذلك القصر عَنْوةً ويقتل مَنْ فيه ،

فطلبوا الصلح ، فصالحهم على سبعمائة ألف درهم ، وعلى أن يعطوه رهناً من أبناء عظمائهم ، وعلى أن يدخل المدينة ومَنْ شاء ويخرج من الباب الآخر ، فأعطوه خمسة وعشرين من أبناء ملوكهم ، ويقال : إنهم أعطوه أربعين من أبناء ملوكهم ، ويقال : ثمانين .

وكان معه من الأمراء ، المُهَلّب بن أبي صُفْرة الأزدي وغيره .

واستشهد معه يومئذٍ قُثَم بن العبّاس بن عبدالمطّلب ، وكان يُشَبّه بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وهو آخر مَن طَلع من لحد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عند دفنه .

وانصرف سعيد إلى (تِرْمِذ) ، ففتحها صلحاً .

فتح سَلْم بن زياد

عزل معاوية بن أبي سفيان عن خُراسان سعيد بن عثمان بن عفّان سنة سبع وخمسين الهجرية (٦٧٦ م) وأضيف إلى ولاية عبيدالله بن زياد في رواية .

وفي رواية أخرى، أنّ معاوية ولّى عليها عبدالرحمن بن زياد ، وكان شريفاً فلم يصنع شيئاً يذكر في مجال الفتح .

ومات معاوية وعلى خُراسان عبدالرحمن بن زياد .

وولّى يزيد بن معاوية خراسان سَلْم بن زياد سنة إحدى وستين الهجريّة (٦٨٥ م) ، فغزا خُوارِزْم ، فصالحه على أربعمائة ألف درهم وحملوها إليه .

وقطع سلْم النهر ومعه امرأته أم محمد بنت عبدالله بن عثمان بن أبي العاص الثّقفي ، وكانت أوّل امرأة عربية عُبر بها النهر ، فوجد (خاتون) ملكة بخارى قد نقضت العهد ، فأتى سَمَرْقَند فصالحه أهلها ، فعاد إلى بخارى .

واستنجدت (خاتون) مرة أخرى بجيرانها في الصُّغْد ، كما استنجدت

بأتراك الشمال ، فجاء (طرخون) على جيش الصُّغد ، كما جاء ملك الترك في عسكر لجبٍ كثيف .

ولم تؤثر تلك الحشود الضخمة من الجيوش المعادية في معنويات المسلمين ، فحاصروا بخارى دون الهجوم عليها ، ليقفوا أولاً على تفاصيل قوّات أعدائهم ومواضعها ، وهي متربِّصة بهم في مواضع ليست بعيدة عن بخارى .

وأمر سلْمُ المهلّب بن أبي صُفْرة الأزديّ أن يستطلع أحوال العدو ، فاقترح المهلّب أن يكلِّف غيره بهذه المهمّة ، لأ نه معروف المكانة بين المسلمين ، وقد يُفشي تغيّبه عن معسكر المسلمين سرّ الواجب الذي كُلِّف به دون مسوِّغ ، وهذا الواجب ينبغي أن يبقي سرّاً مكتوماً ، وإفشاؤه لا يخلو من خطر جسيم .

ولكنّ سلم بن زياد ، أصرّ على إيفاد المهلّب دون سواه في هذا الواجب الحيوي الذي قد يعجز غيره عن النهوض به كما ينبغي ، وأرسل معه ابن عمه ورجلاً من كلٍّ لواء من ألوية المسلمين ، فاشترط المهلّب على سلْم ألاّ يخبر أحداً بمهمته ، ثم مضى إلى سبيله ليلاً ، وكَمَن في موضع مستور ، واستطلع جيش العدو دون أن يشعر العدو بمكانه المخفيّ المستور .

ويبدو ان المسلمين افتقدوا المهلّب في صلاة الفجر ، فما كان تغيب مثله ليخفى على أحد ، فألحّوا على سلْم بالسؤال وألحفوا عليه ، فما استطاع أن يكتم أمره وأخبرهم أنه أرسله ليلة أمس في مهمّة استطلاعيّة !

وفشا الخبر بسرعة خاطفة في العسكر ، فأسرع جمعٌ من المسلمين بالركوب وتوجّهوا إلى موضع المهلّب المستور ، فكشفوا موضعه وموضع رجاله للعدو .

وأبصرهم المهلّب مقبلين يتسابقون بدون نظام ، فلامهم أشدّ اللّوم على ما أقدموا عليه ، لأنهم كشفوا جماعة استطلاعه للعدو ، وعرضّوهم لخطر محدق أكيد .

وأصبح موقف المهلّب ومن معه من المسلمين في خطر محدق ، فبذل المهلّب

قصارى جهده لمعالجة موقفه الخطير .

وأحصى المهلّب المسلمين الذين التحقوا به ، فكانوا تسعمائة ، فقال : « والله لتندمُنّ على ما فعلتم ! » .

وحدث ما توقّعه المهلّب ، فما كاد ينظّم المسلمين صفوفاً ، حتى هاجمهم الترك وأبادوا منهم اربعمائة مجاهد ، ولاذ الباقون منهم بالفرار .

وأُحيط بالمهلّب ومَنْ بقي معه من مفرزته الإستطلاعيّة ذات العدد المحدود، ولكنه ثبت ثباتاً راسخاً ، فالموت بالنسبة لأمثاله أهون من الفرار .

وصاح المهلّب بصوته الجهوريّ القوي مستغيثاً ، فسُمع صوته في معسكر المسلمين القريب ، الذي كان على بُعد نصف فرسخ من موضعه المواجه للعدو .

وبادر فوراً إلى نجدته فريق من قومه ، فشاغلوا الترك ريثما أقبل المسلمون خفافاً على عجل .

ونشب القتال بين الجانبين ، فقاتل المسلمون الترك حتى هزموهم هزيمة منكرة، فتركوا ساحة القتال تاركين أموالهم وأثقالهم، فغنمها المسلمون حتى أصاب كلّ فارس ألفين وأربعمائة درهم في رواية ، وعشرة آلاف درهم في رواية أخرى.

وطارد المسلمون الترك المنهزمين ، فلم يَنْجُ منهم إلاّ الشّريد ، وكان من بين القتلى (بندون) أو (بيدون) الصُّغدى ملك الصُّغد .

وأعادت خاتون الصّلح مع سلم بن زياد ، فاستعاد فتح بخارى .

وبعث سلم وهو بالصُّغد جيشاً إلى (خُجَنْدَة) وفيهم الشاعر أعشى همدان، فهُزم المسلمون ، فقال الأعشى :

لَيتَ خيلي يومَ الخُجَنْدَةَ لم يُهـ ـزَمْ وغُودِرْتُ في المُكَرِّ سَلِيبا

تَحْضُرُ الطير مَصْرَعِيْ وتَرَوَّحْـ ـتُ إلى الله في الدِّماء خَضِيبَا

وعاد سلم إلى (مرو) بعد جهاد هذه السنة .

ويبدو أنّ سلم قطع النهر ثانية في سنة ثلاث وستين الهجريّة (٦٨٢ م)، لأنّه علم بأنّ الصُّغد قد جمعت له ، فقاتلها .

ومات يزيد بن معاوية سنة أربع وستين الهجرية (٦٨٣ م) ، فأُخْرِج سلْم بن زياد من خُراسان ، إذ اختلف المسلمون في خُراسان ، فقال قائلهم : « بئس ما ظنّ سلْم ، إنْ ظنّ أنه يتأمّر علينا في الجماعة والفتنة ! ! » ،فرحل عن خراسان .

ونشب الخلاف الشديد بين القبائل العربية في خُراسان ، فأصبحت سيوفهم عليهم لا على أعدائهم .

فتح أُميّة بن عبدالله

١ـ تولّى خُراسان بعد سَلْم بن زياد عبدُالله بن خازِم السلميُّ ، فقد تلقى عُبدالله سلمَ منصرفه من خراسان بنيسابور ، فكتب له سلم عهداً على خراسان ، وأعانه بمائة ألف درهم .

ولكنّ جمعاً كثيراً من بَكْر بن وائِل وغيرهم رفضوا ولاية ابن خازِم ، فأغاروا على ثقله ، فقاتلوهم عنه حتى كفّوا .

وأرسل سليمان بن مَرْثد أحد بني سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن عُكَابة من المراثد بن ربيعة ، إلى ابن خازم أنّ العهد الذي معك لو استطاع صاحبه أن يقيم بخراسان لم يخرج عنها ويوجّهك ! .

ونزل سليمان بمشرعة سليمان ، ونزل ابن خازم بمرو ، واتفقا أن يكتبا إلى ابن الزبير ، فأيّهما أمّره فهو الأمير .

وكتبا إلى عبدالله بن الزبير ، فولى عبدالله بن خازم خراسان ، فأبى سليمان أن يقبل ذلك .

ونشب القتال بين الجانبين ، فقُتل سليمان .

واجتمع فلُّ سليمان إلى عمر بن مَرْثَد بالطالِقان ، فسار إلى ابن خازم ، فقُتِل عمر .

واجتمعت ربيعة إلى أوس بن ثعلبة بَهراة ، فسار إليه ابن خازم ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وأصابت أوْساً جراحات وهو عليل ، فمات بعد أيام .

واغتنمت الترك هذه الفرصة ، فكانت تغير على المسلمين . حتى بلغت قرب نَيْسَابور ! !

وولى ابن خازم ابنه محمداً (هراة) ، فهاج بنو تميم وقتلوا محمداً ، فقتل ابن خازم أحد رؤساء بني تميم وأحد رجالهم ، فأعلن بنو تميم الثورة على ابن خازم وخلعوه .

وبعث عبدالملك بن مروان بولاية خراسان إلى ابن خازم ، فلم يقبل ولاية عبدالملك ، لأنه تولى من عبدالله بن الزبير .

وقُتل ابنُ خازم في معركة بينه وبين بُكَيْر بن وشاح الذي ولاّه عبدالملك خراسان بعد رفض ابن خازم لولايته .

وتعصّب قوم لابن خازم ، ووقع الاختلاف ، وصارت طائفة مع بكير بن وشاح ، وطائفة عليه ، فكتب وجوه خُراسان وخيارهم إلى عبدالملك يعلمونه أنه لا تصلح خُراسان بعد الفتنة إلاّ على رجلٍ من قريش .

٢ــ وفي سنة أربع وسبعين الهجريّة (٦٩٣ م) استجاب عبدالملك بن مروان لنصيحة وجوه خراسان وخيارهم ، فولاها أُميّة بن عبدالله بن خالد بن أَسِيْد بن أبي العِيْص بن أُميّة وعزل بُكَيْر بن وشاح عنها ، وكانت ولاية بُكَيْر سنتين .

وبذل أُميّة قصارى جهده في إصلاح ما فسد في خراسان حتى سنة سبع وسبعين الهجرية (٦٩٦ م) ، فلما استتب له الأمر ، عزم على غزو بخارى وإتيان موسى بن عبدالله بن خازم المستقل في (الترمذ) ، لتوحيد خُراسان كلّها

والقضاء نهائياً على الانقسامات الداخلية التي أضعف المسامين وأوقفت الفتح وجرّأت البلاد المفتوحة على العصيان .

وولى أمية ابنه على (مرو) ، وتوجه على رأس جيشه إلى بخارى ، ولكن بكير بن وشاح انصرف إلى (مرو) وأخذ ابن أمية وحبسه ، فبلغ ذلك أميّة ، فصالح أهل بخارى على فدية قليلة ، واتخذ السفن ، وقد كان بكير أحرقها ، واجع إلى (مرو) ، تاركاً موسى بن عبدالله بن خازم ، الذي قاتله بكير ثم صالحه على أن يوليه أي ناحية شاء .

ووصل أمية إلى (مرو) ، وقاتل بكير بن وشاح ، وحاصر (مرو) أياماً ، ثم صالح بكير بن وشاح .

وبلغ أميّة أنّ بكير بن وشاح يريد خلعه ، فقتله أميّة .

٣- وغزا أُميّة في أوائل سنة ثمان وسبعين الهجرية (٦٩٧ م) الخُتّل وقد نقضوا بعد أن صالحهم سعيد بن عثمان بن عفّان ، فافتتحها .

فتح المهلب بن ابي صُفرة الازدي

في سنة ثمان وسبعين الهجريّة (٦٩٧ م) عزَل عبدالملك بن مروان عن خراسان أُميّة بن عبدالله بن خالد وضمها إلى أعمال الحجاج بن يوسف الثّقفيّ .

وبعث في هذه السنة الحجّاج على خراسان المهلّب بن أبي صُفرة الأزْديّ بعد أن فرغ من حرب الأزارقة .

وقطع المهلّب سنة ثمانين الهجريّة (٦٩٩ م) نهر بَلْخ على رأس جيش تعداده ثمانية آلاف رجل ، فحاصر مدينة (كِشّ) ، فأتاه ابن عم ملك (الخُتّل) ودعاه إلى غزوها ، فوجّه معه ابنه يزيد بن المهلّب ، فحاصر يزيد قلعة ملك الختّل ، فصالحوه على فدية حملت إليه ، ثم رجع يزيد إلى المهلّب ، وكانت الختّل قد انتقضت .

كما فتح خُجَنْدَة ، وأدّت إليه الصُّغد الأتاوة ، وغزا كِش وصالحها بعد

بعد حصار طويل ، كما غزا مدينة نَسَف .

لقد غزا المهلّب غزوات كثيرة ، واستطاع أن يعيد الأمن والاستقرار إلى كثير من ربوع بلاد ما وراء النهر .

فتح يزيد بن المُهَلّب

توفي المهلّب بن أبي صُفرة سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١ م) ، فاستخلف ابنه يزيد بن المهلّب ، فأقرّ الحجّاج يزيد على خراسان .

وغزا يزيد مغازي كثيرة وفتح (البُتّم) على يد مُخَلّد بن يزيد بن المهلّب. وغزا يزيد خُوارِزْم وأصاب سبياً .

واولا انشغاله بالفتن الداخلية ، لكان له في الفتوح شأن كبير .

فتح المُفَضَّل بن المهلّب

وفي سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٤ م) عزل الحجّاج عن خراسان يزيد بن المهلّب وولّى مكانه أخاه المفضّل بن المهلّب .

وبقي المفضّل في منصبه تسعة أشهر فقط ، ففتح (باذَغِيْس) وقد انتقضت ، كما فتح (شُومان) و (أخْرون) ، وأصاب غنائم قسمها بين الناس ،

ولكنّ أبرز أعمال المفضّل وأبقاها ، هو قضاؤه على موسى بن عبدالله بن خازم الذي سيطر على بلاد ما وراء النهر لا ينازعه فيها أحد .

وقصة موسى بن عبدالله طويلة لا صلة لها بالفتح ، فلما عُزل يزيد بن المهلّب وولي المفضّل ، قرر أن يضع حداً لانفصال موسى بن عبدالله بن خازم عن الدولة الذي استمر خمس عشرة سنة ، فسيّر عثمان بن مسعود إليه ، وكتب إلى مُدْرِك بن المهلّب وهو بِبَلْخ يأمره بالمسير معه ، فعبر النهر في خمسة عشر ألفاً ، وكتب الى السّبل وإلى طرخون (١) فقدموا عليه ، فحصروا موسى

(١) السبل : ملك الختل ، وطرخون ملك الصغد

وضيّقوا عليه وعلى أصحابه في (ترمذ) .

ومكث موسى شهرين في ضيق شديد ، وقد خندق عثمان عليه وحذر البيات ، فقال موسى لأصحابه : « اخرجوا بنا ، حتى متى نصبر ! فاجعلوا يومكم معهم ، إما ظفرتم وإما قُتِلتم » .

وخرج موسى وأصحابه ، وخلّف على المدينة النّضر بن عبدالله بن خازم ، وقال له : « إنْ قُتلتُ فلا تدفعنّ المدينة إلى عثمان ، وادفعها إلى مُدْرِك بن المهلّب » .

وجعل موسى ثلث أصحابه بإزاء عثمان ، وأمرهم ألاّ يقاتلوه إلاّ إذا قاتلهم ، وقصد بمن معه لطرخون وأصحابه ، فصدقوهم القتال ، فانهزم طرخون وأخذوا عسكرهم .

وزحفت الترك والصُّغْد ، فحالوا بين موسى وحصن ترمذ .

وقاتلهم موسى ، فعقروا فرسه ، فسقط على الأرض ، فحمله أحد مواليه على فرسه ، فلما نظر إليه عثمان حين وثب قال : « وثبة موسى وربِّ الكعبة » .

وقصد عثمان إلى موسى ، وعقرت دابة موسى ، فسقط هو ومولاه ، فقتلوه .

ونادى منادى عثمان : من لقيتموه فخذوه أسيراً ولا تقتلوا أحداً » ، فقتَل ذلك اليوم من الأسرى خلقاً كثيراً من العرب خاصة ، فكان يقتل العرب ويضرب المولى ويطلق سراحه .

وقتل موسى سنة خمس وثمانين الهجريّة ، بعد أن سيطر على بلاد ما وراء النهر خمس عشرة سنة لا ينازعه فيها منازع .

وبذلك مهّد المفضّل لقتيبة أن يفتح ما شاء في بلاد ما وراء النهر ، فكان قتيبة حسنة من حسنات المفضّل بلا مراء .

فتح قُتَيْبَة بن مُسْلِم الباهِلِيّ

١ـ عزل الحجّاج بن يوسف الثّقفيّ عن خُراسان المفضَّل بن المهلّب سنة ست وثمانين الهجريّة (٧٠٥ م) في خلافة الوليد بن عبدالملك ، وولى مكانه قُتَيْبَة بن مُسْلِم الباهِلِيّ ، فقدم قتيبة خراسان والمفضَّل يعرض الجند للغزاة .

وعرض قتيبة الجند وحثّهم على الجهاد وسار غازيا ، فلما كان بالطالِقَان أتاه دهاقين بَلْخ وساروا معه ، فقطع نهر (جَيْحون) ، فتلقاه ملك الصَغَانِيان بهدايا ومفاتيح من ذهب ، ودعاه إلى بلاده وسلّمها إليه ، لأنّ ملك (شُوْمان) و (آخرون) كان يسيء جواره .

وسار قتيبة إلى (آخرون) و (شومان) وهما من الصغانيان ، فصالحه ملكها على فدية أدّاها إليه ، فقبلها قتيبة ، ثمّ انصرف عائداً إلى (مرو) .

واستخلف قتيبة على الجند أخاه صالح بن مسلم ، ففتح صالح بعد رجوع قتيبة (كاشان) و (أورشت) وهي مدينة من مدن فرغانة ، وفتح (أَخْسِيْكَث) وهي مدينة فرغانة القديمة .

وبهذا الفتح الكبير ، استهلّ قتيبة ولايته لخرسان سنة ست وثمانين الهجرية (٧٠٥ م) .

٢ـ وفي سنة سبع وثمانين الهجرية (٧٠٥ م) ، غزا قتيبة (بِيْكَنْد) وهي أدنى مدائن بُخارى إلى النهر ، فسار من (مرو) ، وأتى (مرو الرّوذ) ، ثم أتى (آمُل) ، ثم مضى إلى (زَمّ) ، فقطع النهر وسار إلى (بيكند) التي يقال لها : مدينة التجّار ، على رأس المفازة من بخارى .

ولما نزل قتيبة بساحتهم ، استنصروا (الصُّغْد) واستمدّوا مَنْ حولهم ، فأتوهم في جمع كثير ، وأخذوا بالطريق ، فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه رسول ولا خبر شهرين .

وأبطأ خبر قتيبة على الحجّاج ، فأشفق على الجند ، وأمر الناس بالدعاء

لهم في المساجد ، وكتب بذلك إلى الأمصار .

وكان قتيبة يقاتل عدوّه كلّ يوم ، وكان له عين من العجم ، فأعطاه أهل بخارى مالاً ليردّ عنهم قتيبة ، فأتاه وقال له سرّاً من الناس : « الحجّاج قد عُزل ، وقد أتى عامل إلى خراسان ، فلو رجعت بالناس كان أصلح » ، فأمر بقتله خوفاً من أن يظهر الخبر ، فيهلك الناس ثمّ قال لرجل كان عنده هو ضِرار بن حُصَيْن الضَبّيّ حين جاءه العين بهذا الخبر : « لم يبق أحد يعلم هذا الخبر غيري وغيرك ، وإني أعطي الله عهداً لئن ظهر هذا الحديث من أحد حتى تنقضي حربنا هذه لأُلحقنك به ، فاملكْ لسانك ، فإنّ انتشار هذا الحديث يَفُتّ من اعضاد الناس » .

وأمر قتيبة أصحابه بالجدّ في القتال ، فقاتلهم قتالاً شديداً . وانهزم أعداؤه يريدون المدينة ، وأتبعهم المسلمون فشغلوهم عن دخول المدينة ، فتفرّقوا . وركبهم المسلمون في مطاردة عنيفة ، فقتلوا منهم مَن قتلوا ، وأسروا منهم مَن أسروا .

واعتصم مَن دخل المدينة ــ وهم قليل ، فوضع قتيبة الفَعَلَة لهدم سورها ، فسأله المحصورون الصلح ، فصالحهم واستعمل عليهم عاملا .

وارتحل قتيبة عنهم يريد الرجوع ، فلما سار خمسة فراسخ ، نقضوا الصلح وقد تحصّنوا ، فقاتلهم شهراً ، ثم وضع الفَعَلة فنقبوا سورها ، فسألوه الصلح فلم يقبل ، ودخل المدينة عَنْوَةً ، وقتل مَن كان فيها من المقاتلة . وكان فيمن أخذوا في المدينة رجل أعور ، كان هو الذي استجاش الترك على المسلمين ، فقال لقتيبة « أنا أفدي نفسي » ، فقال سليم الناصح : « ما تبذل » ، فقال : « خمسة آلاف حريرة صينية قيمتها ألف ألف » ، فقال قتيبة : « ما ترون ؟ » ، فقالوا إنْ فداه زيادة في غنائم المسلمين ، وما عسى أن يبلغ من كيد هذا ؟ ! » ، فقال : « لا والله ! لا تروّع بك مسلمة أبدا » ، وأمر به ، فقتل .

وأصاب المسلمون في بيكند من آنية الذهب والفضة مالا يُحصى ، وأصابوا شيئاً كثيراً لم يصيبوا مثله حتى بخُراسان .

ورجع قتيبة إلى (مرو) ، وقوي المسلمون فاشتروا السِّلاح والخيل ، وجُلبت إليهم الدّواب . وتنافسوا في حسن الهيئة والعُدَّة ، وغالوا بالسِّلاح حتى بلغ سعر الرمح سبعين درهما .

وكان في الخزائن سلاح وآلة من آلة الحرب كثيرة ، فكتب قتيبة إلى الحجّاج يستأذنه في توزيع السِّلاح على الجند ، فأذن له . وأخرجوا ما كان في الخزائن من عُدَّة الحرب وآلة السّفر ، فقسّمه في الناس .

٣- استقرّ قتيبة في (مرو) أيام الشتاء للراحة وإنجاز الاستحضارات الإدارية لجيشه وإعداد رجاله للقتال ، فلما كانت أيام الربيع من سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٦ م)، ندب الناس وقال : « إني أغزيكم قبل أن تحتاجوا إلى حمل الزّاد ، وأنتقلكم قبل أن تحتاجوا إلى الإدفاء » ، فسار من (زَمّ) إلى بخارى ، فأتى (نُومشكث) وهي من بخارى ، فصالحوه .

وسار قتيبة إلى (امِيثْنَن) ، فصالحه أهلها أيضاً ، فانصرف عنهم .

وفي طريق عودة قتيبة إلى (مرو) ، زحف إليه الترك ومعهم (الصُّغْد) وأهل فرغانة في مائتي ألف بقيادة ملك الترك (كور بغانيون) ابن اخت ملك الصين ، فهدّدوا السّاقة التي كانت بقيادة عبدالرحمن بن مسلم الباهلي ، وكان بينه وبين قتيبة وأوائل العسكر ميل واحد . ولما قرب العدو من السّاقة ، أرسل قائدها رسولاً إلى قتيبة يخبره بزحف الترك ، ولكنّ الترك هاجموه في أثناء ذلك وقاتلوه .

وأتى الرسولُ قتيبةَ فرجع قتيبة بالناس ، وانتهى إلى السّاقة وهي مشتبكة بالقتال ، وقد كاد الترك يسحقونها .

وحين رأى الناس قتيبة ، طابت أنفسهم ، فصبروا وقاتلوا إلى الظهر ، وأبلى يومئذ (نيزك) وهو مع قتيبة ، فانهزم الترك .

ورجع قتيبة ، فقطع النّهر عند (تِرْمِذ) ، وأتى (مرو) .

٤ـ أمر الحجّاج سنة تسع وثمانين الهجريّة (٧٠٧ م) بغزو بخاري ، وملكها يومئذ (وَرْدان خُدَاة) الذي اغتصب الملك من طغشاد بن خاتون .

وعبر قتيبة النهر من (زَمّ) ، فلقيه الصُّغد وأهل كِشّ ونَسَف في طريق المفازة وقاتلوه ، ولكنه انتصر عليهم .

ومضى إلى بخارى ، فنزل (خرَقانة) السفلى ، فلقوه بجمع كثيف ، فقاتلهم يومين وليلتين ، وانتصر عليهم .

وغزا (وردان خُداة) فلم يظفر بشيء ، فرجع إلى (مرو) .

وكتب قتيبة إلى الحجّاج بخبره ، فكتب إليه الحجّاج يأمره بالتوبة مما كان من انصرافه عن (وردان خداة) قبل الظفر به ويعرِّفه الموضع الذي ينبغي أن يأتي بلده منه .

وفي سنة تسعين الهجريّة (٧٠٨ م) ، خرج قتيبة من (مرو) غازيا ، فأرسل (وردان خُداة) إلى الصُّغْد والترك ومَن حولهم يستنصرهم ، فأتوه وقد سبق إليه قتيبة وحصره

ووردت الامدادات إلى ملك بخارى ، فقالت الأزْد : اجعلونا وحدنا وخلّوا بيننا وبين قتالهم . فقال قتيبة : « تَقدّموا » فتقدّموا يقاتلونهم قتالاً شديداً ، ولكنهم انهزموا حتى دخلوا عسكر قتيبة وجاوزوه فضرب النساء وجوه الخيل وبكينَ ، فكرّوا راجعين .

وأطبقت مجنبتا جيش المسلمين على الترك ، فقاتلوهم حتى ردّوهم إلى مواقعهم السّابقة .

ووقف الترك على نشز من الأرض ، فقال قتيبة : « مَن يزيلهم عن هـذا الموضع ؟ ! » فلم يُقدم عليهم أحد ! فأتى قتيبة بني تَمِيْم وقال لهم : « يوماً

كأيامكم . . . » ، فأخذ وَكيعُ بن حَسّان بن قيس التميمي اللّواء وقال : « يا بني تَميم ! أتُسلمونني اليوم ؟ ! » ، فقالوا : لا ، يا أبا مُطَرِّف » ، وكان هُرَيْم بن أبي طَحْمَة المجاشِعيّ على خيل بني تميم ، ووكيع رأسهم ، فقال وكيع : « يا هريم ! قدِّم خيلك . . . » ، ودفع إليه الراية . وتقدّم هريم ، في الرجالة فانتهى هريم إلى نهر بينهم وبين الترك ، فوقف ، فقال له وكيع : « إقحم يا هريم ! » ، فضرب هريم فرسه وأقحمه ، وعبر بالخيل .

وانتهى وكيع إلى النهر ، فشدّ عليه جسراً من خشب ، وقال لأصحابه : « مَن وطّن نفسه على الموت ، فليعبر ، وإلاّ فليثبت مكانه » ، فماعبر معه إلاّ ثمانمائة رجل .

ودنا وكيع من العدو ، فقال لهريم : « إنـي مطاعنهم ،فأشغلهم عنّا بالخيل» ، فطاعنوهم ولم يزالوا يقاتلونهم حتى أزاحوهم عن مواضعهم » .

ونادى قتيبة : « أما ترون العدو منهزمين ! ؟ » ، فأتبعهم الناس .

ونادى قتيبة : « مَن جاء برأس فله مئة » ، فأتي برؤوس كثيرة ، وجرح يومئذٍ . (خاقان) ملك الترك وابنه .

وفتح الله على المسلمين بخارى ، فكتب بالفتح إلى الحجّاج .

٥- وقضى قتيبة سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٥٩ م) في القضاء على فتنة (نَيْزَك) (١) طرْخان أحـد ملوك الأعاجم الذين نقضوا العهد وخانوا الذمّة

وفي هذه السنة أيضاً ، سار قتيبة إلى (شُوْمَان) ، وكان سبب ذلك أنّ ملكها طرد عامل قتيبة من عنده ، فأرسل قتيبة رسولين : أحدهما من العرب اسمه عيّاش بن عبدالله الغَنَوِيّ ، والآخر من أهل خُراسان ، يدعوان ملك (شومان) إلى أن يؤدي ما كان عليه ، فقدما (شومان) ، فخرج أهلها ورموهما ، فانصرف

(١) صاحب باذغيس ، انظر ابن الاثير (٥٢٧/٤)

الخرساني ، وقاتلهم عيّاش ، فقتلوه ، ووجدوا به ستين جراحة .

وبلغ قتيبة قتله ، فسار إليهم بنفسه ، فلما أتاه أرسل صالح بن مسلم أخاه إلى ملكها – وكان صديقاً له ، يأمره بالطّاعة ويضمن له رضا قتيبة إن رجع إلى الصلح ، فأبى وقال : « أتخوّفني من قتيبة ، وأنا أمنع الملوك حصناً ؟ ! » ، فأتاه قتيبة وقد تحصّن ببلده ، فوضع عليه المجانيق ، ورمي الحصن ، فهشمه .

وخاف الملك أن يظهر عليه قتيبة ، فجمع ما في الحصن من مال وجوهر ، ورمى به في بئر بالقلعة لا يُدرك قعرها ، ثمّ فتح القلعة وخرج إلى المسلمين فقاتلهم حتى قُتل .

وفتح قتيبة القلعة عَنْوَة ، فقتل المقاتلة وسبى الذريّة .

وسار إلى (كِشّ) و (نَسَف) ، ففتحهما صلحا .

وامتنعت عليه (الفَارِيَاب) ، فأحرقها ، فسمّيت المتحرقة .

وسيّر من (نَسَف) و (كِشّ) أخاه عبدالرحمن إلى (الصُّغْد) وملكها لقبه (طرخون) ، فقبض عبدالرحمن من طرخون ما كان صالحه عليه قتيبة ، ورجع إلى قتيبة ببخارى ، فرجعوا إلى (مرو) .

٦– وقضى قتيبة سنة اثنتين وتسعين الهجريّة (٧١٠ م) في غزو سِجِسْتان ، فصالح أهلها واستعمل عليها أحد رجالِه .

وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١ م) ، صالح قتيبة ملك خُوَارِزْم ، وكان سبب ذلك ، أنّ الملك كان ضعيفاً ، فغلبه أخوه (خُرَّزاد) الذي كان أصغر منه على أمرِه ، وعاث في الرعيّة وسلبهم أموالهم وأهليهم ، فكتب ملك خوارزم إلى قتيبة يدعوه إلى أرضه ليسلّمها إليه ، على أن يمكّنه من أخيه وأصحابه ليحكم فيهم بما يرى .

ولم يُطلع ملك خوارزم أحداً من مرازبته على ذلك ، فأجابه قتيبة إلى ما طلب ، وتجهّز للغزو .

وأظهر أنه يريد الصُّغد، فأقبل أهل خوارزم على شأنهم، ولم يحتفلوا بغزوه وفجأة نزل قتيبة بجيشه قريباً من خوارزم، فجاء أصحاب ملك خوارزم إلى ملكهم ودعوه للقتال، فقال: «ليس لنا به طاقة، ولكن نصالحه على شيء نعطيه كما فعل غيرنا»، فوافقوه.

وسار ملك خوارزم حتى نزل بمدينة (الفيل) – وكانت مدينة خوارزم وهي أحصن بلاده، فصالح قتيبة على عشرة آلاف رأس وعين ومتاع، وعلى أن يعينه على (خام جرد)، فقبل قتيبة ذلك، وقيل: صالحه على مئة ألف رأس.

وبعث قتيبة أخاه عبدالرحمن إلى (خام جرد)، وكان يُغازى ملك خوارزم، فقاتله وقتله وغلب على أرضه.

وسلّم قتيبة إلى ملك خوارزم أخاه ومَن كان يخالفه من أمرائه، فقتلهم ودفع أموالهم إلى قتيبة.

٧– وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١ م) أيضاً، سار إلى (سمرقند) فبعد أن قبض صلح خُوارزم، قامَ إليه المُجشّر بن مُزاحِم السُّلَمِيّ وقال له سِرّاً: «إن أردت الصُّغد يوماً من الدّهر، فالآن، فإنّهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام». فقال قتيبة: «أشار بهذا عليك أحد؟؟»، قال «لا!»، قال: «فأعلمته أحداً؟؟»، قال: «لا!» فقال قتيبة: «والله لئن تكلّم به أحد، لأضربنّ عنقك».

وأقام قتيبة يومه ذلك، فلما أصبح من الغد، دعا أخاه عبدالرحمن وقال: «سِرْ في الفرسان والرماة، وقدّم الأثقال إلى (مرو)»، فوجّه الأثقال إلى (مرو)، ومضى عبدالرحمن يتبع الأثقال يريد (مرو) يومه كلّه، فلما أمسى كتب إليه قتيبة: «إذا أصبحتَ، فوجّه الأثقال إلى (مرو)، وسِرْ بالفرسان والرماة نحو الصُّغد، واكتم الأخبار، فإني بالأثر».

وبلغ قتيبة الصُغد بعد عبدالرحمن بثلاثة أيام أو أربعة ، وقدّم معه أهل خوارزم وبخارى ، فحصرهم شهراً ، وقاتلهم في حصارهم مراراً من وجه واحد .

وكتب أهل الصُغد إلى ملك الشّاش وملك فَرْغانة : « إنّ العرب إن ظفروا بنا عادوا عليكم بمثل ما أتونا به ، فانظروا لأنفسكم ، ومهما كان عندكم من قوّة فابذلوها » .

واستقرّ رأيا ملكي الشّاش وفرغانة على إمداد أهل الصُغد ، فأرسلوا إليهم : « أرسلوا مَن يشغلهم حتى نبيِّت عسكرهم » ، وانتخبوا من أولاد الملوك وأهل النجدة من أبناء المرازبة والأساورة والأبطال ، وأمرهم أن يأتوا عسكر قتيبة ويبيِّتوه ، لأنه مشغول عنهم بحصار سمرقند .

وبلغ قتيبة الخبرُ ، فانتخب من عسكره اربعمائة مجاهد ، وقيل : ستمائة مجاهد من أهل النّجدة والشّجاعة وأعلمهم الخبر ، وأمرهم بالمسير إلى عدوِّهم ، فساروا وعليهم أخوه صالح بن مسلم ، ونزلوا على فرسخين من العسكر على طريق القوم .

وأرسل صالح عيونه ، فأخبروه أنّ العدو سيصل إليه ليلاً ، ففرّق خيله ثلاث فرق: جعل كمينين في موضعين ، وأقام هو وبعض فرسانه على قارعة الطريق.

وطرقهم العدو ليلاً وهم لا يعلمون بمكان صالح ، وهم آمنون في أنفسهم من أن يلقاهم أحد دون العسكر ، فلم يعلموا بصالح حتى غشوه ، فشدّوا على قوّته حتى إذا اختلفت الرماح بينهم خرج الكمينان فقاتلوا العدوّ . قال أحدهم : « إنّا لنقاتلهم إذ رأيت تحت اللّيل قتيبة وقد جاء سرّاً ، فضربتُ ضربة أعجبتني ، فقلت : كيف ترى بأمي وأبي ؟ ! فقال : اسكت ! فضّ الله فاك » .

واستطاع فرسان صالح أن يتغلّبوا على عدوِّهم، فلم يفلت منهم إلاّ الشّريد، وأسروا بعض الأسرى ، وغنموا خيلهم وسلاحهم .

وعلم الصُّغد باندحار القوّة التي جاءت مدداً لهم ، فأثّر ذلك في معنوياتهم أسوأ الأثر .

٨– ونصب قتيبة حول سمرقند المجانيق ، فرماها بها وثام ثامة فسدّوها بغرائر الدُّخُن ، وقام عليها رجل ، فشتم قتيبة . وكان مع قتيبة قوم رماة ، فأمر قتيبة رجلاً منهم رمى شاتمه ، فلم يخطئْ عينه .

وسمع قسم من المسلمين قتيبة وهو يناجي نفسه بقوله: « حتى متى يا سمرقند، يعشعش فيك الشيطان لي؟ ! أما والله لئن أصبحتُ لأُحاولنّ من أهلك أقصى غاية » .

وأصبح قتيبة ، وميّز أهل البأس، فجمعهم يعرضهم بنفسه . ودعا العرفاء ، فجعل يدعو برجل ، فيقول : « ما عندك ؟ » ، فيقول العريف : « شجاع » ، ويقول : « ما هذا ؟ » ، فيقول : « مختصراً » ، ويقول : « ما هذا ؟ » ، فيقول « جبان ! » ، فأخذ قتيبة خيل الجبناء وجيّد سلاحهم ، وأعطاه الشجعان والمختصرين ، وترك للجبناء رثّ السّلاح .

وأمر الناس بالجدّ في القتال ، فقاتلوهم أشدّ القتال .

وأمرهم قتيبة أن يبلغوا ثلمة المدينة قائلاً : « ألحّوا عليهم حتى تعبروا على الكلمة فقاتلوهم حتى صاروا على ثلمة المدينة .

ورماهم الصُّغد بالنّشاب ، فوضعوا أترستهم على وجوههم ولم يبرحوا ، فأرسل الصُّغد إلى قتيبة مَن يقول له : « انصرف عنّا اليوم ، حتى نصالحك غداً» ، فقال قتيبة : « لا نصالحهم إلاّ ورجالنا على الثلمة » ، وقيل بل قال : « جزع العبيد ! انصرفوا على ظفركم » . .

وصالحهم قتيبة من الغدِ على ألفي ألف ومائتي ألف مثقال في كلّ عام ، وأن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف فارس ، وأن يخلوا المدينة لقتيبة فلا يكون لهم

فيها مقاتل ، فيبني فيها مسجداً ، ويدخل ويصلي ويخطب ويتغدىّ ويخرج .

وتمّ الصلح ، وأخلوا المدينة ، وبنوا المسجد ، فدخل قتيبة سمرقند في أربعة آلاف انتخبهم ، فصلّى في المسجد ، وخطب ، وأكل طعاماً ، ثمّ أرسل إلى الصُّغد : « مَن أراد منكم أن يأخذ متاعه فليأخذه ، فإني لست خارجاً منها ، ولست أخذ منكم إلاّ ما صالحتكم عليه ، غير أنّ الجند يقيمون فيها » .

وقيل : إنّه شرط عليهم في الصلح مئة ألف فارس وبيوت النيران وحلية الأصنام ، فقبض ذلك ، فكانت كالقصر العظيم ، فأخذ ما عليها وأمر باحراقها ، فجاءه (غوزك) ملك الصُّغد ، فقال : « إنّ شكرك عليّ واجب ! لا تتعرّض لهذه الأصنام ، فإنّ فيها أصناماً مَن أحرقها هلك ! ! » ، فقال قتيبة : « أنا أحرقها بيدي » ، فدعا بالنّار ، ثم كبّر ، وأشعلها ، فاحترقت ، فوجدوا من بقايا مسامير الذّهب خمسين ألف مثقال ! !

وصنع (غوزك) طعاماً ، ودعا قتيبة ، فأتاه في عددٍ من أصحابه ، فلما تغدّى قال للملك : « انتقل عنها » ، يعني عن سمرقند ، فانتقل (غوزك) عنها .

وأرسل قتيبة إلى الحجّاج بفتح سمرقند ، ثم رجع إلى (مرو) .

وكان أهل خراسان يقولون : إنّ قتيبة غدر بأهل سمرقند ، فملكها غدراً .

٩- وفي سنة أربع وتسعين الهجريّة (٧١٢ م) ، قطع قتيبة نهر جيحون ، وفرض على أهل بخارى وكِش ونَسَف وخُوارزم عشرين ألف مقاتل ، فساروا معه فوجّههم إلى الشّاش ، وتوجّه هو إلى فرغانة .

واصطدم قتيبة بالعدو في (خُجَنْدَة) حيث جمع له أهلها ، فلقوه واقتتلوا مراراً ، في كلّ مرة يكون الظفر للمسلمين .

وفتح الجند الذين ساروا إلى الشّاش الاقليم وهذه المدينة وأحرقوها، ثمّ رجعوا إلى قتيبة ، فرجع بالنّاس إلى (مرو) .

١٠- وبعث الحجّاج سنة خمس وتسعين الهجرية (٧١٣ م) إلى قتيبة جيشاً من العراق ، فغزا بهم ، فلما كان بالشّاش أتاه موتُ الحجّاج ، فغمّه ذلك وقفل راجعاً إلى (مرو) .

وتفرّق الناس ، فخلّف في بخارى قوماً ، ووجّه قوماً إلى كِش ّ ونَسَف.

وفي (مرو) أتاه كتاب الوليد بن عبدالملك : « وقد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدّك واجتهادك في جهاد اعداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي يجب لك ، فأتِمّ مغازيك ، وانتظر ثواب ربك ، ولا تغبْ عن أمير المؤمنين كتبُك ، حتى كأني أنظر إلى بلائك والثّغر الذي أنت فيه » .

١١- وفي سنة ست وتسعين الهجريّة (٧١٤ م) ، غزا قتيبة (كاشغر) وهي أدنى مدائن الصين ، فسار وحمل مع الناس عيالاتهم ليضعهم في سمرقند ، فلما عبر النهر استعمل رجلاً على معبر النهر ليمنع مَن يرجع من جنده إلاّ بجواز منه . . . ومضى إلى فرغانة ، وأرسل الى شِعْب يؤدي إلى (كاشغر) من يسهل الطريق إليها .

وبعث قتيبة مقدّمته إلى (كاشغر) ، فغنموا وسبوا .

وأوغل قتيبة حتى قارب الصّين ، فكتب إليه ملك الصّين : « إبعث إليّ رجلاً شريفاً يخبرني عنكم وعن دينكم » ، فاختار قتيبة اثني عشر رجلاً لهم جمال وألسن وبأس وعقل وصلاح ، وأمر لهم بعُدّة حسنة ومتاع حسن من الخز وغير ذلك وخيول حسنة ، وكان منهم هُبَيْرَة بن المُشَمْرَج الكِلابيّ مفوّهاً سايط اللّسان ، وقال لهم : « إذا دخلتم على ملك الصّين ، فأعلموه أني قد حلفتُ : أني لا أنصرف حتى أطأ بلادهم ، وأختم ملوكهم ، وأجبي خراجهم ».

وسار وفد قتيبة عايهم هُبَيْرَة ، فلما قدموا الصّين ، دعاهم ملكها ، فلبسوا ثياباً بياضاً تحتها الغلائل ، وتطيّبوا ولبسوا النّعال والأردية ، ودخلوا عليه

عظماء قومه ، فجلسوا فلم يكلّمهم الملك ولا أحد ممن عنده . وقال الملك لمن حضره بعد انصراف الوفد : « كيف رأيتم هؤلاء ؟ ! » ، فقالوا : « رأينا قوماً ما هم إلاّ نساء ! ما بقي منا أحد حين رآهم ووجد رائحتهم إلاّ انتشر ما عنده » .

وفي غدٍ دعاهم ، فلبسوا الوشي وعمائم الخز والمطارف (أبسة من خز مربعة لها أعلام) وغدوا عليه ، فلما دخلوا قيل لهم : « ارجعوا » . وقال الملك لأصحابه : « كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ » ، فقالوا : « هذه أشبه بهيئة الرجال من تلك » .

وفي اليوم الثالث دعاهم ، فشدّوا سلاحهم ولبسوا البَيْض (الخُوَذُ) والمغافِر (جمع مِغْفَر وهو زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة) وأخذوا السيوف والرماح والقِسِيّ وركبوا ، فنظر إليهم ملك الصّين ، فرأى أمثال الجبال مقبلة - فلما دنوا ركّزوا رماحهم ثم أقبلوا نحوهم مشمّرين ، فقيل لهم قبل أن يدخلوا : « ارجعوا » ، لِمَا دخل في قلوبهم من خوفهم ، فانصرفوا راكبين خيولهم ، وأخذوا رماحهم ، ودفعوا خيلهم كأنهم يتطاردون ، فقال الملك لأصحابه : « كيف ترونهم ؟ ! » ، فقالوا : « ما رأينا مثل هؤلاء ! ! » .

وفي مساء نفس اليوم ، بعث ملك الصين إليهم : « ابعثوا إليّ زعيمكم » ، فبعثوا إليه هُبَيْرَة ، فقالوا له : « قد رأيتم عظم ملكي ، وأنه ليس أحد يمنعكم مني ، وأنت في يدي بمنزلة البيضة في كفي ، وإني سائلكم عن أمرٍ ، فإن لم تصدقوني قتلتكم» . فقال : « اسأل » ، فقال: لِما صنعتم ما صنعتم في الزيّ في الأول والثاني والثالث ؟ » ، فقال : « أما زيّنا الأول ، فلباسنا في أهالينا وريحنا عندهم . وأما يومنا الثاني فإذا أتينا أمراءنا . وأما الثالث فزيّنا لعدوّنا». فقال : « ما أحسن ما دبّرتم دهركم ، فانصرفوا إلى صاحبكم ، فقولوا لـه ينصرف ، فإني قد عرفت حرصه وقلّة أصحابه وإلاّ بعثت عليكم مَن يهلككم ويهلكه » ، فقال هبيرة: « كيف يكون قليل الأصحاب مَن أول خيله في بلادك

وآخرها في منابت الزيتون ؟ ! وكيف يكون حريصاً مَن خلّف الدنيا قادراً عليها وغزاك ؟ ! وأما تخويفك لنا بالقتل ، فإنّ لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نرهبه ولا نخافه ! ! » . قال : « فما الذي يرضى صاحبك ؟ » ، قال : « إنه قد حلف ألاّ ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوكهم ويُعطى الجزية » ، قال الملك : « فإنّا نخرجه من يمينه : نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطأه ، ونبعث أبناءنا فيختمهم ، ونبعث لهم بجزية نرضاها » .

ودعا الملك بصحاف من ذهب فيها تراب ، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ، ثم أجاز الوفد فأحسن جوائزهم ، فقدموا على قتيبة ، فقبِل الجزية ، وختم الغلمان وردّوهم ، ووطئ التراب .

وفي هذه الغزاة ، وصل الخبر إلى قتيبة بموت الوليد بن عبدالملك وتولي سليمان ابن عبدالملك مكانه ، فعاد قتيبة أدراجه ، فقتل في فرغانة .

فتح عبدالرحمن بن مسلم الباهلي

١ــ كان عبدالرحمن من أقوى أعوان أخيه وأخلصهم ومن أبرز قادته الذين عاونوه في تحمّل أعباء واجباته قائداً فاتحاً وإدارياً .

وقد شهد عبدالرحمن تحت لواء أخيه قتيبة غزواته كافة قائداً مرؤوساً تحت إمرة قتيبة تارة ، وقائداً مستقلاً تارة أخرى .

ففي سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٦ م) ، سار قتيبة إلى (ارمِيثن) بالقرب من بخارى فصالحه أهلها .

وانصرف قتيبة إلى (مرو) ، وفي طريق عودته زحف إليه الترك ومعهم الصُّغد وأهل فَرْغَانة في مائتي ألف بقيادة ملك الترك (كوربغانيون) ابن أخت ملك الصِّين ، فهدّدوا السّاقة التي كانت بقيادة عبدالرحمن . وكان بين الساقة وقتيبة الذي كان على رأس (القسم الأكبر) من الجيش ميل واحد ، فلما

قربوا من السّاقة ، أرسل عبدالرحمن رسولاً إلى قتيبة يخبره بزحف الترك ، ولكن الترك هاجموا السّاقة في أثناء ذلك وقاتلوه .

وأتى الرسول قتيبة ، فرجع بالناس ، وانتهى إلى السّاقة وهي مشتبكة بالقتال ، وقد كاد الترك يسحقونها سحقاً ، فلما رأى الناس قتيبة طابت أنفسهم فصبروا وقاتلوا إلى الظهر ، حتى انهزم الترك .

٢- وفي سنة تسعين الهجرية (٧٠٨ م) وسنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٠٩ م) ، كان لعبدالرحمن نشاط مرموق في القضاء على انتقاض (نِيزَك) ملك طخارستان ، واستعادة السيطرة على هذه البلاد ، وقتل (نيزك) في آخر المطاف .

وفي هذه السنة أيضاً ، أي سنة إحدى وتسعين الهجريّة ، سيّر قتيبة أخاه عبدالرحمن إلى الصُّغد وملكها طرخون ، فقبض عبدالرحمن من طرخون ما كان صالحه عليه قتيبة ورجع إلى (مرو) .

٣- وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١ م) ، صالح قتيبة ملك (خُوارِزْم) على أن يعينه على (خام جرد) أحد ملوك منطقة من مناطق خوارزم ، وكان يعادي ملك خوارزم ويسبّب له المشاكل ويغازيه .

وبعث قتيبة عبدالرحمن إلى بلاد الملك (خام جرد) في خوارزم ، فقاتل عبدالرحمن (خام جرد) وقتله وغلب على أرضه .

٤- وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١ م) أيضاً ، دعا قتيبة أخاه عبدالرحمن بعد صلح خوارزم ، وقال له : « سِرْ في الفرسان والرماة ، وقدّم الأثقال إلى مرو » ، فوجّه عبدالرحمن الأثقال إلى مرو ، ومضى يتبع الأثقال يريد مرو أيضاً ، فأمضى اليوم كله ، فلما أمسى كتب إليه قتيبة : « إذا أصبحت فوجّه الأثقال إلى مرو ، وسِرْ بالفرسان والرماة نحو الصُّغد ، واكتم الأخبار ، فإنّي بالأثر » .

وبلغ قتيبة (الصُّغد) بعد عبدالرحمن بثلاث ليالٍ أو أربع ، وبعد قتال عنيف وحصار طويل ، صالحهم قتيبة ودخل (سمرقند) .

فتح صالح بن مُسْلِم الباهِلِيّ

١- كان صالح السّاعد الأيمن لأخيه قتيبة ، شهد معه معاركه التي خاضها كافة في الفتوح .

ففي سنة ست وثمانين الهجرية (٧٠٥ م) ، انصرف قتيبة إلى (مرو) بعد استعادة طخارستان ، فاستخلف على الجند أخاه صالحاً ، ففتح صالح بعد رجوع قتيبة إلى (مرو) مساحات شاسعة من إقليم (فَرْغانة) : (كاشان) و (أورشت) و (أخْسِيْكَث) بما وراء النهر .

٢- وفي سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٠٩ م) ، سار قتيبة إلى (شُوْمان) لتأديب ملكها الذي طرد عامل المسلمين من شومان ، فلما أتاه أرسل أخاه صالحاً إلى ملكها ، وكان صالح صديقاً للملك ، فأمره بالطّاعة وضمن له رضا قتيبة إن رجع إلى الصلح ، ولكن الملك أبى وقال : « تخوّفني من قتيبة، وأنا أمنع الملوك حصنا ؟ ؟» ، فأتاه قتيبة وقد تحصّن ببلده ، فوضع عليه المجانيق ورمى الحصن فهشمه .

وخاف الملك أن يظهر عليه قتيبة ، فجمع ما في الحصن من مال وجوهر ، ورمى به في بئر بالقلعة لا تدرك ، ثمّ فتح باب القلعة وخرج إلى المسلمين فقاتلهم حتى قُتِل .

٣- وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١ م) قصد قتيبة الصُّغد بعد أن صالح خُوارِزْمشاه وقبض صلح خُوارِزْم ، فأمّد أهل الشّاش وفَرْغَانة أهل الصُّغد ، وأرسلوا إليهم : « أرسلوا مَن يشغلهم ، حتى نبيّت عسكرهم » ، وانتخبوا من أولاد الملوك وأهل النجدة من أبناء المرازبة والأساورة والأبطال ، وأمروهم أن

يأتوا عسكر قتيبة ويبيّتوه ، لأنه مشغول عنهم بحصار سَمَرْقَنْد .

وبلغ قتيبة الخبر ، فانتخب من عسكره أربعمائة رجل ، وقيل : ستمائة رجل من أهل النجدة والشّجاعة ، وأعلمهم الخبر ، وأمرهم بالمسير إلى عدوّهم . وسار هؤلاء الرجال المنتخَبون وعليهم أخوه صالح ونزلوا على فرسخين من معسكر أعدائهم على طريق القوم .

وأرسل صالح عيونه ، فأخبروه أنّ العدو سيصل إليهم ليلا .

وفرّق صالح خيله ثلاث فرق : جعل كمينين في موضعين ، وأقام هو وبعض فرسانه على قارعة الطريق .

وطرقهم العدو ليلاً وهم لا يعلمون بمكان صالح ، وهم آمنون في أنفسهم من أن يلقاهم أحد دون معسكر قتيبة ، فلم يعلموا بصالح حتى غشوه .

وشدّ العدو على فرسان صالح ، حتى إذا اختلفت الرماح بينهم ، خرج الكمينان اللّذان جعلهما صالح في موضعين مختلفين حسب الخطّة المرسومة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً .

واستطاع فرسان صالح أن يتغلّبوا على عدوّهم ، فلم يفلت منهم إلاّ الشريد، وأسروا بعض الأسرى ، وغنموا خيلهم وسلاحهم .

وعلم الصُّغد باندحار القوّة التي جاءت مدداً لهم ، فأثّر ذلك في معنوياتهم تأثيراً سيئاً وفتّ في عضدهم ، مما اضطرهم الى الصلح .

ودخل المسلمون سمرقند صلحاً ، وكان لصالح في فتح هذه المدينة أثر كبير .

عبرة الفتح واستعادة الفتح

كثيراً ما قرأنا في كتب المؤرخين الأجانب وبحوثهم ، أنّ أسباب انتصار الفاتحين في الفتح واستعادة الفتح هو : « لعدم وجود جيش منظّم قوي يستطيع صدّ الفتح الإسلاميّ ويحمي البلاد المفتوحة ، ولأنّ الحرب السّاسانيّة البيزنطيّة

قد استنزفت قوى الدواتين ، وأنّ مصاولة الفاتحين اقتصر على السكّان المحليين بطاقاتهم المحدودة » ، كما يردّد قسم من المستشرقين المغرضين ويردّد أعداء العرب والمسلمين من المؤرخين الأجانب .

ومن المؤسف حقاً ، أنّ قسماً من المؤرخين العرب والمسلمين ، نقلوا نقلاً حرفياً بكل أمانة ، مزاعم أوائك الأعداء والمغرضين إلى المدارس والمعاهد العربية والإسلامية والجامعات ، فسمّموا بها أفكار التلاميذ العرب والمسلمين والطلاّب والقرّاء بمزاعم باطلة لا يقرّها المنطق ولا يصدّقها العقلُ وتناقض وقائع التاريخ .

والهدف من هذه المزاعم ، هو التهوين من شأن الفتح الإسلامي الذي يعتبره المسلمون من أول مفاخرهم ، والتهوين من شأن الفاتحين باعتبار أنّ الفتح كان سهلاً يستطيع النهوض به غيرهم ، والتهوين من أثر الإسلام عقيدة بدّلت العقول والنفوس من حال إلى حال .

وبمجرد قراءة فتح بلاد ما وراء النهر وحدها ، نجد مثالاً حيّاً عملياً ينطبق على فتوح البلاد الأخرى ، يوضّح ما عاناه المسلمون في الفتح واستعادة الفتح ، فقد لاقى المسلمون مقاومة عنيفة جداً ، ولم يحقّقوا النصر إلاّ بالتضحيات الجسام.

لقد قاومت البلاد المفتوحة بضراوة وعنف شديدين ، ولعلّ من أسباب تلك المقاومة : مناعة البلاد الطبيعية والاصطناعية ، وتفوّق المقاومين من أهل البلاد على الفاتحين عَدَداً وعُدَداً ، والدفاع عن النّفس والعقيدة والتقاليد ، ودفاع الحكّام عن سلطتهم وسلطانهم .

كما أنّ طول خطوط مواصلات المسلمين ، وتغلغلهم بعيداً عن قواعدهم الرئيسة والأماميّة والمتقدّمة ، ساعد أعداءهم على مقاومتهم بشدّة وعنف .

لقد كانت كلّ العوامل العسكرية المتميّزة إلى جانب أعداء المسلمين ، ولكنّ المسلمين كانوا متفوّقين على أعدائهم بالعقيدة الراسخة ، فكانت انتصاراتهم انتصارات عقيدة بلا مراء .

وفي الوقت الذي كان غزو الإسكندر المقدوني والفُرس والرُّوم والتتار والاستعمار الحديث سحابة صيف ، لأنه ليس فتحاً بل استعباداً ، بقي الفتح الإسلامي فتحاً مستداماً في أيام قوّته وأيام ضعفه أيضاً ، وسيبقى واضح المعالم بارز الأثر في البلاد المفتوحة ما بقي التاريخ والبشَر في الأرض ، لانه فتح مبادئ لافتح سيوف ، والمبادئ تبقى والقوّة تزول .

إنّ الفتح الإسلامي ، واستعادة الفتح ، لم يكن نزهة للترفيه كما يصوّره المغرضون والحاقدون والجهلة ، وكما يردده المستشرقون والمستغربون ، بل كان فتح عقيدة راسخة منشئة بنّاءة ذاد عنها حماة قادرون من قادة الفتح وجنوده وقادة الفكر وجنوده معاً .

تلك هي العبرة الأولى ، تفضح ادعاءات أعداء العرب والمسلمين ومَن سار على نهجهم من العرب والمسلمين عمداً أو جهلا .

والعبرة الثانية ، هي أنّ المسلمين لا يُكرهون غيرهم على اعتناق الإسلام ، فقد بقيت (الخاتون) مثلاً على دينها خمسين سنة تحكم في ظلّ الفتح الإسلامي ، ومن الواضح أنّ المسلمين كانوا يستطيعون إكراهها على اعتناق الإسلام ، وكانت تستجيب للوعد والوعيد ، ولكنهم لم يفعلوا ، ولن يفعلوا : (لا إكراه في الدِّين ، قد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ من الغَيِّ) .

وقد اعتنق ابن الخاتون الإسلام من بعدها ، وقاتل مع المسلمين ، وسمّى ابنه : قتيبة ، ولم يذكر أحدُ أنه أُجبر على اعتناق الدين الجديد .

وكان بإمكان المسلمين الفاتحين إكراه الأُمم المغلوبة على أمرها لاعتناق الدين الإسلاميّ ، ولكنهم لم يفعلوا . وأكبر دليل على تسامح المسلمين وتطبيقهم مبدأ : حريّة العقيدة ، هو بقاء كثير من الأديان الغابرة التي كانت قبل الإسلام موجودة حتى اليوم في بلاد المسلمين المفتوحة وبين مجتمع الأغلبيّة من المسلمين الفاتحين .

وإذا صحّ افتراء المغرضين المتهافت ، أنّ الإسلام انتشر بالسيف في البلاد المفتوحة ، فكيف إذاً انتشر هذا الدين في البلاد غير المفتوحة في الشرق والغرب ؟! مع العلم أنّ تَعداد المسلمين في البلاد غير المفتوحة ، هي أكبر من تعدادهم في البلاد المفتوحة ، كما تدل على ذلك أحدث الاحصائيات .

وكيف أصبح التتار مثلاً مسلمين بعد أن اكتسحوا البلاد الإسلامية ، وكانوا هم الغالبين ، وكان المسلمون هم المغلوبين ؟ ! .

وحين انتصر الإسبان في الأندلس على المسلمين ، أجبروا المسلمين على التنصّر بالقسر والضغط والشدّة ومحاكم التفتيش ، كما يشهد على ذلك كلّ المؤرخين الأسبان والأجانب ، ولا نقول كما يشهد المؤرخون العرب والمسلمون !

ولو كان المسلمون يُكرهون أحداً على الإسلام ، لما بقي الإسبان النصارى في الأندلس يعيشون مع المسلمين بضعة قرون ، ثم استطاعوا استعادة الأندلس من المسلمين بعد أن غيّر المسلمون ما بأنفسهم ، فلم يبقوا أهلاً للسيادة كما كان أسلافهم الفاتحون .

إنّ المسلمين يعرضون الإسلام على غير المسلمين بالحكمة والموعظة الحسنة والحسنى والقدوة والتشجيع وبناء المساجد ، كما فعل قتيبة بن مُسلْم مع أهل بُخارى مثلاً ، وكما فعل غيره من المسلمين .

إنّ المسلمين حملوا الإسلام إلى الأمم الأخرى بالفتح .

ولكنهم لم يحملوا الناس على الإسلام بهذا الفتح .

والعبرة الثالثة ، أنّ الفتح واستعادة الفتح يقوى ويشتدّ ويعلو مَدُّه حين تشمل الوحدة المسلمين : يقاتلون تحت قيادة موحّدة واحدة ، لتحقيق هدف موحّد واحد ، هو إعلاء كلمة الله ، ونشر المُثُل العليا بين الناس .

وأنّ البلاد المفتوحة تنتقض وتضطرب ويسودها الفوضى والفتن ، حين يختلف المسلمون وتتفرّق صفوفهم ، فيقاتلون تحت قيادات شتّى ، لتحقيق أهداف شتّى.

إنّ سيوفهم بالوحدة ، تكون لهم على أعدائهم .
وسيوفهم بالفُرقة ، تكون عليهم لا على أعدائهم .

وقد توقّف الفتح واستعادة الفتح أيام تفرّق المسلمين ، وكانت خسائرهم بالأرواح في اقتتالهم الداخليّ ، أضعاف خسائرهم بالأرواح في قتال أعدائهم للفتح واستعادة الفتح .

وإحصاء الخسائر في معارك الفتن الداخليّة والاضطرابات المحلية ، التي سجّاها المؤرخون القُدامى ، خير دليل .

تلك هي مجمل عبرة فتح بلاد ما وراء النهر واستعادة فتحها ، وهي تنطبق على سائر الفتوح واستعادة الفتوح شرقاً وغرباً .

فما أحرانا أن نستوعب هذه العبرة استيعاباً (عمليّاً) لا (نظريّاً) ، ونأخذ منها الدروس لحاضرنا ومستقبلنا عرباً ومسلمين .

ولا أريد أن أشقّ على أحد ولا أن أكلّف أحداً فوق ما يطيق .

إنّ الذي أرجوه من إخوتي المؤرخين العرب والمسلمين ، هو أن يعودوا إلى مصادرنا التاريخيّة المعتمدة ، قبل أن ينقلوا عن الأجانب ، فلا يفهم القضايا العربية الإسلامية كالعربيّ المسلم ، فإذا استوثق مما سطّره الأجنبيّ فهماً وحقائق ، فلا بأس من نقله ونشره ، وإذا كان الفهم سقيماً والحقائق مشوّشة جرّاء سوء الفهم أو جرّاء إشاعة الكذب والدس ، فلا أقلّ من فضحها بالحقائق النّاصعة والفهم السليم ، وإلاّ فالسكوت عنها وهذا أضعف الإيمان .

إنّ للمغرضين من الأجانب أهدافاً مفضوحة في تشويش التاريخ العربيّ الإسلامي تسوّغ لهم قلب الحقائق رأساً على عقب .

فما هو المسوّغ لنقل تلك الافتراءات والأكاذيب عن أولئك المغرضين بالنسبة للمؤرخ العربي المسلم ؟ !

أخشى ألاّ يكون المسوّغ غير الجهل المطبق ، أو تلويث عقول الناقلين ! !

الفهرس

البحـوث

الجزء الرابع المجلد الرابع والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العراقي



ذو الحجة ١٤٠٢ هـ
تشرين الأول ١٩٨٢ م